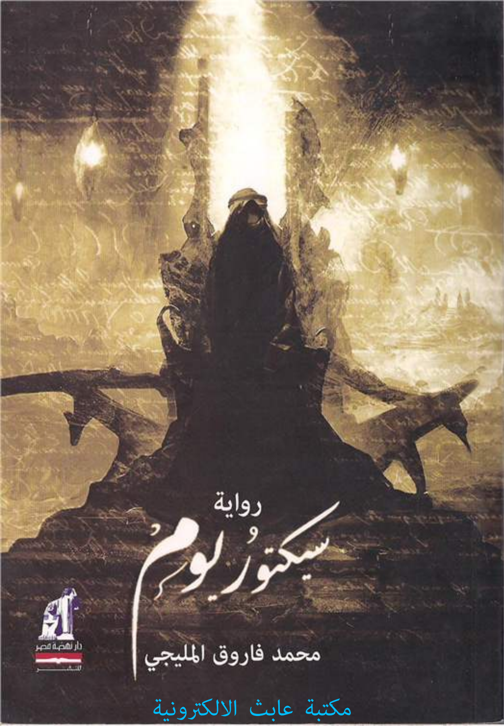

رواية
سيكتوريوم
محمد فاروق المليجي
دار نهضة مصر
للنشر

سيكتوريــوم

الكتـاب الأول:

- الملاحات
- الصحراء البيضاء

إهداء وشكر واجبان

إلى روح شيخي سيد إبراهيم بعبولة الذي أذاقني في بيته معاني الحب وفتح لي مغاليق الأمور...

إلى صديقيَّ بيدو وسكر؛ مَن لم تكتف صداقتهما بالحياة الواقعية وأبت إلا أن يكونا من أبطال روايتي...

إلى صديقي أحمد عبد المجيد الذي أعطاني وقته وراجع العمل بأكمله في مراحله الأولى، فكانت ملاحظاته خير معين لي...

إلى صديقي شريف عبد الهادي الذي كانت قناعته بهذا العمل حافزًا لي لإكماله وإخراجه للنور...

وأخيرًا ودومًا؛ إلى زوجتي شيماء شاهين التي قرأت لها العمل أكثر من مرة فكانت هي خير من يرسم الرسومات الداخلية ويعبر عنها...

لكل هؤلاء وغيرهم أهدي عملي هذا وأوجه الشكر والعرفان..

سطح الأرض، تحت النجوم

فوق النجوم، تحت الأرض

لن يقابل إنسيًا خلقًا

إلا على أرض سواء

يكون الاثنان فيها واحدًا

الملاحات

تمهيد

أن يترك زحام القاهرة..

أن يترك تلوث القاهرة؛ عصبيتها وجوها المشحون..

هذا هدف في حد ذاته..

أحيانًا يفكر أن كائنًا مظلمًا بالقاهرة يسيح في الشوارع فيسد المساحات بين الناس..

يملأ حتى الفراغات بين خلايا عقولهم!

ومع الوقت تصير القاهرة حتى في قلب النهار مدينة سوداء!

يذكر أن شاهد يومًا لوحة تسمى (أبيض على أبيض)[1] حيث صندوق أبيض مرسوم داخله صندوق آخر أبيض ولا شيء سوى هذا، يفكر:

---

(1) لوحة (أبيض على أبيض) للفنان الروسي كازيمير ماليفيتش.. يقول ماليفيتش: «تخيلاتي بالنسبة للون لم تعد ملونة.. إنها آخذة في الانسحاب نحو لون واحد الأبيض» ويعتبر ماليفيتش أحد رواد فن البورتريه في القرن التاسع عشر.

ترى لو أن رسامًا رسم القاهرة في لوحة هل كان يسميها (اختناق على اختناق) أو (أسود على أسود)؟!

كانت أفكاره تتداعى أمام عينيه بالتناسق مع صوت ارتطام وجهه على نافذة الميكروباص!

يحب هو إحساس هدهدة الرأس في لحظات السفر..

زجاج النافذة البارد المطلّ على الموجودات التي تمر مسرعة مُبشّرة بسرعة الوصول، وسرعة الهروب من الكائن الخانق خلفه – الرحلة غير المرتب لها إلى الإسكندرية للقاء أصدقائه تعده بذلك الهروب الذي يسعى إليه..

لا يدري هل اللهفة لموج البحر أم فرط الاختناق ما جعله يسرع للسفر ليلا رغم كرهه للسفر في هذا الوقت من اليوم، ورغم كرهه أكثر لسفر الميكروباصات– علب الموت تلك والكائنات غير الأرضية التي تقودها!

(الميكروباصات) حيث تحدي قوانين الطبيعة كل لحظة؛ قوانين الجاذبية أحيانًا وقوانين القصور الذاتي في أحيان أخرى مع تغيير الاتجاهات الفجائي!!

ورغم أن اللقاء في صباح اليوم التالي فقد دبَّر شقة للمبيت عند قريبة له تعيش في الإسكندرية..

كثيرٌ عليه أن ينتظر للصباح حتى يسافر!

يوقن هو من داخله أن للبحر سحرًا يناديه، وربما ينادي على أصدقائه كذلك..

منذ طفولته حينما كان يذهب للبحر في الصيف ويجلس على شاطئه كانت متعته الكبرى النظر في الوجوه من حوله؛ أي سحر هذا الذي جمع تلك الوجوه المختلفة في مكان واحد؟!

يجلسون متلاصقين؛ الشمسية بجوار الأخرى ولا يتضايق أحد من هذا التعدي لخصوصياتهم.. فقط يأتون تلبية لنداء البحر الساحر، الفلاح بجوار الصعيدي، بجوار ابن المدينة.. الكل يتخلص من ملابسه ويجلس يستمع لموج البحر وسحره!

نعم.. السحر.. ربما لا يوجد سبب أكثر منطقية من السحر يمكن أن يجمع تلك المجموعة العجيبة من أصدقائه بتنافرهم الواضح!

أولئك الذين جمعتهم المنتديات الحوارية على الإنترنت..

بعضهم امتدت صداقته خارج أسلاك النت حتى صارت صداقة العمر، والبعض ظلت الشاشة معه هي الحاكمة للعلاقة..

شخصيات مختلفة..

صفات مختلفة..

وفي أحيان كثيرة متضادة أيضًا..

اختلفوا كثيرًا، واتفقوا كثيرًا أيضًا، ومما اتفقوا عليه كان هذا اللقاء عند البحر..

أكبرهم (الحديدي)، أكبرهم ليس فقط في السن وإنما حجمًا أيضًا؛ مهندس ميكانيكا، ضخم الجسد، عالي الصوت، آراؤه كمثل صوته حادة لا يقبل معها أي جدل أو معارضة..

الحديدي لا يؤمن إلا بما يقيسه بعقله، ويرفض كل ما هو غير مادي إلا تحت ظروف شديدة التعقيد كأن يرى بعينيه ما يتكلم عنه الآخرون، أو أن تثبت المراجع والقوانين – غير القابلة للنقض – ما يسمع أو يرى.. له ولع بالمخطوطات واللغات القديمة وأصولها، واستنباط معان جديدة من النصوص القديمة.. ولعه هذا وفر له رصيدًا من الحكايات كانت هي النقطة الجامعة له مع (سكر)..

لا شيء سوى الحكايات يشد (سكر)!

يركز سكر أكثر في موسيقى (التنويم) الطبيعية من ارتطام رأسه بالنافذة وهو يبتسم لذكرى معارك الحديدي الدائمة مع صديقه الآخر (الشاعر)..

(الشاعر) – المتصوف – المعروف بممارسته للرياضات الشرقية التأملية؛ التاي تشي والتشي كونج[2]، والمهتم بدراسة أساليب العلاج البديلة غير المعتادة مثل العلاج بالطاقة والأعشاب والإبر الصينية..

بتركيبته تلك غير المنتمية لعالم القوانين الصارمة والملموسة لا يمكن للشاعر أبدًا أن يتفق مع (الحديدي)، ومع هذا ومع استمرار

(2) التاي تشي – التشي كونج أو (Tai chi , Qiqong) رياضات صينية تأملية تهدف إلى تناغم الطاقة في جسد الانسان، وتختلف التاي تشي عن التشي كونج بأن للحركة جانبًا واسعًا فيها.. ممارس التاي تشي يتحرك ببطء فيما حوله وهو يحرك يديه وقدميه بأوضاع منتقاة بعناية لتوزيع الطاقة في جسده، أما التشي كونج فكلها أوضاع من الثبات .

معاركهما كأنها نمط من أنماط الحياة تستمر العلاقة بينهما بشكل أو بآخر!!

ربما لهذا السبب أصر أن يكون ثالثهم موجودًا معه في هذا اللقاء..

اسمه في مجموعتهم (بيدو)، وهو أكثر من يرتاح له (سكر) وسطهم، ربما لأن الطباع متقاربة بشكل كبير بينهما..

بيدو كيميائي متخصص في تحليل المياه ودراستها، صاحب طباع هادئة، وعلى ما يبدو أكسبه تعامله مع المياه هذا الهدوء والقدرة على تقبل الناس، لذا يتجنب الصدام مع الناس..

حالم..

رومانسي..

وهو بشكل أو بآخر سفير السلام الدائم بين (الحديدي) و(الشاعر)!

بقي هو (سكر) بطباعه الطفولية التي يراها صعبة القبول وسط الناس..

أحيانًا يشعر بأنه في عالم من النفوس المظلمة التي لا يجيد التعامل معها..

ربما لهذا لا يعرف عنه الناس الكثير، وربما لهذا يضع رأسه دومًا في كتاب يقرؤه..

الروايـات هي مهربـه وسط هـذا الزحـام مـن النفوسـن المظلمة، بالـذات روايـات العوالـم الخياليـة؛ هـاري بوتـر وملـك الخواتـم وما يشبههما..

ولعـه الخاص بروايـات العوالم الخياليـة يخرجه مـن إحساس الغربة وسط الناس هذا!

وحين يغمضـن عينيه بعـد انتهاء القـراءة، وحين يسـرح عقله ويطير خياله إلى تلك العوالم ينسى نظرات الناس، وينسى أي استهزاء..

منذ الطفولة علم أن الله وهبه تلك النعمـة؛ (التخيل الواقعي) كما يحب أن يسميه، حيث يرى الأحداث أمام عينيـه كأنه أمام شاشة تليفزيون، بل ربما يكـون وسط الأحـداث، مشـاركًا فيها لا مجـرد مشاهد لهـا، ومنذ الطفولة علم أن هذا سره الصغير الذي لا يبوح به أبدًا..

❀ ❀ ❀

يعود لصوت رأسه المصطدم بالنافذة..

الساعة الحادية عشـرة مساء، والطريـق لم يزل طويـلا، فيقرر أن الوقت قد حان للمزيد من هاري بوتر..

حاول أن يستحوذ على مكان أكثر من المقعـد، لكن جاره السمين كان نائمًا غير قابـل للزحزحة، فاكتفـى بأن مد ساقيـه النحيلتيـن أسفل المقعد المقابل له في محاولة لإراحة مفاصله، وبدأ يقرأ على ضوء مصباح خافت في سقف العربة..

يلمح جارًا آخر في السيارة يرمقه بنظرة تعجب تقول الكثير..

ما هـذا الذي تقـرؤه؟ ألا تخجل مـن قصص الأطفال وأنـت في سنك هذه؟

لم يكن سكر صغير السـن، بل هو في أواخـر العشرينات، لكن وجهه الطفولي دومًا لا يدعم عدد سنوات عمره..

لكن نظرات الرجل تقول المزيد......

هل يمكنني أن أقرأ مثلك ولا أهتم بمن حولي!

أخرج عددًا آخر مـن السلسلة ومدها بصمت للرجل الـذي أخذها وهو ينظر حوله متـرددًا، لكن شخيـر النائمين في السيارة طمأنـه، فالتفت في مقعده والرواية معه دون حتى أن يشكر (سكر)..

تك.. تتك.. تك

رأسه.................

يصطدم..................

بالنافذة..................

تك.. تتك.. تك

يدرك أن الكائن الخانق الأسود قد أفلته..

تك.. تتك.. تك

يغلق عينيه فيرى عالم بوتر خلف جفنه..

تك . . تتك . . تك

عقله ينسحب إلى عالم النوم. . . . .

❀ ❀ ❀

تك . . تتك . . تك

❀ ❀ ❀

انفجار هز رأسه!!

انفجار هز معدته!!

أطرافه تسري فيها كهرباء الفزع!!

لا يفهم . . .

يفتح عينيه (يحاول أن يفتح عينيه).

يتنفس (يحاول أن يتنفس).

هم عند الملاحات – هذا أول ما قالته له الرائحة . .

وهم أيضًا متوقفون على جانب الطريق . .

يلتفت حوله محاولًا أن يفهم ، فيفهم متعجبًا!!

(سرطان زجاج) وانفجار الكاوتش الخلفي ، الاثنان في وقت واحد!

يسأل:

– «كم الساعة الآن؟» .

فيجيبه الكائن الأسود بصوت عجوز مختنق:

– «منتصف الليل»!

يسمع أحد الركاب وهو يسب لاعنًا الحظ الأسود واليوم الأسود ،

فيكمل هو (والكائن الخانق الأسود)!!

أكيد، جزء منه ركب معه في السيارة!

صوت السائق متعكر المزاج يأمرهم بالنزول فيطيعون لتستقبلهم

رائحة الملح البكر . .

برغم كل شيء لن يتعكر مزاجه –هكذا قرر في سره . .

ينزل الركاب ويتناوبون في فرد ظهورهم على الأرض أو التمطؤ . .

البعض– مثله – قرر أن يحرك قدمه المتيبسة قليلًا، والبعض – مثله

أيضًا–لم ير يومًا الملاحات في هذا الظلام ؛ العشش المتناثرة على الشاطئ

بأضوائها الخافتة . .

الضباب الذي يعوم على سطح الماء المالح . .

الرؤية شبه المنعدمة، وأصوات كائنات تسكن الليل لا تُرى أبدًا في

وضح النهار!

في وقت آخر كان يمكن أن يخاف من هذا المشهد ،لكن نفس تلك

الموجودات أراحت اليوم أعصابه . .

يشعر بالخفة وهو يتحرك على ضفاف الملاحات محاذرًا أن تفلت قدمه فيضطر للعوم المبكر في حمام الملح هذا!

منطقة أعشاب كثيفة يجدها فيدخلها حتى تحتويه..

السكون وأصوات الظلام وألوان الملح على صفحة الوجود..

ينظر حوله..

يتأكد ألا أحد يلحظه..

ثم أخرج تلـك العصا التـي أعطاها له صديقـه (الشاعر) يومًـا قائلًا إنها للعـلاج بالطاقة[3]، لكـن بالنسبة لـه كان يراها مثـل عصا الساحـر؛ (عصا الكبير) التي في روايات هاري بوتر كما قال هوللشاعر وقتها ضاحكًا[4]!

والجو حقيقة مناسب جدًا لأجواء (هاري بوتر)..

يرفع العصا أمام عينيـه وهو يصيح – كاتمًا ضحكتـه – بتعويذة إضاءة الظلام في روايات هاري بوتر:

– «لوموس».

❀ ❀ ❀

---

(3) عصا الطاقة: عصا يستخدمها معالجو الطاقة لتجميع طاقات الكون وتركيزها بحيث تخرج من الطرف المدبب إلى الجسم المراد علاجه.. تعتبر عصا الطاقة امتدادًا للجسد، وهي نفس النظرية التي يستخدمها ممارسو أسلوب القتال بالسيف في رياضة التاي تشي الصينية.

(4) عصا الكبير: هي عصا سحرية ورد ذكرها في رواية هاري بوتر، وتعرف بأسماء عدة أخرى مثل: عصا الموت، عصا القدر، وبحسب الرواية هي أقوى العصي السحرية التي وجدت يومًا، ولكن تاريخها كله دموي بسبب صراع السحرة عليها على مر الزمان.

(1)

ظلام..

وأصوات صراخ..

ظلام..

وفحيح يملأ الوجود..

ظلام..

وبئر سحيقة يهوي فيها..

❀ ❀ ❀

(2)

كان المحقق معهم كما يوصف في الروايات؛ طويل القامة، ضخم الجثة، مربع الوجه، وظلال سوداء أسفل عينيه لا تبشر بخير..

حجرة التحقيق كذلك كانت كالروايات؛ جدران خضراء، دخان السجائر فيها يكتم الضوء الخافت القادم من مصباح هزيل مدلى من السقف.. مكاتب معدنية صدئة، وملفات مهترئة على دواليب أكثر اهتراء!

لسبب ما لم يتبينه أحس (بيدو) أن المحقق يكتم داخل أسئلته شراسة غير معلنة..

كان يرى في عينيه لهفًا للإجابة يكتمها بحكم منصبه وبحكم كونهم ليسوا أكثر من أصدقاء لسكر لا يد لهم فيما حدث..

من بداية استدعائهم والأمر غامض.. طبيعي أن يتم استجواب راكبي الميكروباص الذي استقله (سكر)، وربما ساكني العشش بالملاحات، لكن أن يتم استجوابهم هم، فهذا غير منطقي بالمرة!

كانوا قد ذهبوا في موعدهم لذلك اللقاء الجماعي، ومع غياب سكر وعدم رده على الهاتف، ومع القلق المتزايد من هلع أهله، كان طبيعيًا أن يُبَلِّغوا عن فقده، وما إن ذهبوا لأقرب قسم شرطة حتى انقلبت الدنيا رأسًا على عقب!

علموا أن هناك نشرة إلى كافة أقسام الإسكندرية لمن يُبَلِّغ عن فقد شخص بمواصفات (سكر)!

علموا كذلك أن ضابطًا كبيرًا بأمن الدولة يتابع القضية بنفسه!

هو نفس الضابط الذي يستجوبه الآن، فما علاقة أمن الدولة باختفاء (سكر)؟

يدقق أكثر في ملامح الرجل الذي أهمله بعض الوقت يتابع فيه تلفازًا يعرض نشرة أخبار.. يفكر *هذا رجل كلاسيكي، يتظاهر بعدم الاهتمام، ربما يستخدم هذا الأسلوب مع المجرمين ولكن هل هم كذلك؟!*

يسأله كأنه لا يعرف:

- «ما اسمك؟».

فيرد غير مستبشر:

- «(عبد الباقي) يا فندم».

- «منذ متى تعرف (أحمد)؟»

لكن عقل (بيدو) لم يكن معه فأكمل الاستجواب بذهن بعيد كل البعد عن سائله..

لم تفارق عينه صديقه (الشاعر) الجالس في ركن غرفة التحقيق ينتظر دوره في الأسئلة..

يعرف صديقه جيدًا..

يعرف كيف يقرأ انفعالاته..

و هذا الذي يظهر على عيني صديقه ليس حزنًا على (سكر) الذي اختفى..

ليس قلقًا من موقف أمن الدولة الغريب هذا..

ليس كذلك ترقبًا لأسئلة المحقق في اختفاء صديقهم..

بل هو الاندهاش!!

يراه يضع رأسه بين كفيه وهو يهزه كأنما يكذب حوارًا داخليًا يدور في رأسه..

نعم! يوقن تمامًا أن ما في عين (الشاعر) كان هو الاندهاش بعينه..

الاندهاش من أمر آخر غير التحقيق هذا!!

❀ ❀ ❀

في غرفة الانتظار – الضيقة ذات الحوائط المتسخة الملحقة بحجرة التحقيق – تأكد (بيدو) من إحساسه لما هرب (الشاعر) من ملاقاة نظراته أكثر من مرة..

و بالرغم من ضيق الحجرة والضجيج من بكاء الأهل والأصدقاء الذين جمعتهم المصيبة، فنظرات (الشاعر) المتهربة كانت أكثر ضجيجًا في نظره وأكثر قلقًا!

وما سمعه من أحد الضباط زاده قلقًا على قلق؛ قال له الضابط إنه بعد تعطل العربة التي استقلها (سكر) ونزول الركاب منها، وبعد مضي بضع

دقائق سمع الركاب فجأة صوت فحيح يملأ سكون الليل حتى كاد يخرق آذانهم..

ولما أفاقوا من الألم والهلع أسرع السائق بتصليح الإطار ليختفوا من هذا المكان..

ساعتها فقط اكتشفوا اختفاء (سكر)..

في البدء ظنوا أنه غرق في الملاحات – وهو ظن مخيف في حد ذاته – غير أن صوت الفحيح الذي سمعوه زرع في نفوسهم يقينًا أن الأمر فاق مجرد غرق أحد الركاب..

وبعدما أجبر الركاب السائق على العودة للبحث عنه وجدوا حقيبة (سكر) وعصًا غريبة الشكل بجوار كثيب عشبي..

بحثوا في المياه كثيرًا في تلك البقعة لكن لم يجدوا أي أثر لسكر..

كان احتمال الغرق ضعيفًا جدًا؛ لضحالة المياه في تلك البقعة – العمق هناك لم يزد على نصف متر ولا توجد أية تيارات مائية قد تسحب (سكر) رغمًا عنه..

خوف السائق جعله يهدد الركاب بتركهم إن لم يركبوا، فاضطروا مجبرين إلى الركوب معه وتوجهوا إلى أول نقطة شرطة لكن السائق لاذ بالفرار بعد أن أنزلهم- ربما لامتلاء الملف الذي يحمل اسمه عند الأمن بالمخالفات –وبعد ساعة أو أكثر حضر رجال الأمن إلى البقعة التي كانت حتى وقت قريب هادئة ناعسة..

ولم يكن ما وجده رجال الأمن يساعدهم بأي حال من الأحوال؛ ليس أكثر من شخص اختفى بعد صوت فحيح!!

هناك أيضًا شاهد عيان من ساكني العشش رأى كأن قطعًا بالسكين حدث في السماء للحظة ثم اختفى بنفس سرعة حدوثه.. بالنسبة لعقل هذا الشاهد البسيط فقد ظنه برقًا، وتعجب ساعتها من وجود برق دون رعد أو أمطار قبل أن يكمل نومه القلق!

❀ ❀ ❀

يعود يطارد عين (الشاعر) موقنًا أن فيها الكثير..

ويبدو أن (الحديدي) – أحد أفراد المجموعة المستجوبة حاليًا في القسم – قد لاحظ هذا أيضًا..

تبادلا النظرات معًا باتفاق سرّى بينهما، وفي لحظات كانا قد حاصرا (الشاعر) في ركن لا يقدر فيه على الهرب..

نظر إليهما نظرة فزعة أربكت عقولهما ثم قال دون سؤال منهما:

– «أظن أني أعرف أين اختفى (سكر)!».

❀ ❀ ❀

(3)

يشعر أن الظلام في عينيه..

يشعر أن البرد في جوفه..

و أن الليل صار بلا نهار يتبعه!

❀ ❀ ❀

يبدأ يشعر بحدقة عينه ويحاول فتحها، فلا يدري أعجزَ عن فتحها أم لا فارق بين فتح عينه وغلقها!

❀ ❀ ❀

الظلام ولا شيء إلا الظلام..

ظلام بلا لمحة ضوء تنعكس على حدقتيه فيبصر ولو حتى حدود الأشياء..

هل مات؟

هل هو القبر؟

جبهته تتعرق رغم برودة مفاصله، إذن هو لم يمت بعد..

تبدأ خلايا عقله في العمل..

يتذكر..

وينسى –في نفس اللحظة – إن كان يمكن للتذكر والنسيان أن يجتمعا في وقت واحد!

تأتيه الذكرى، وتختفي كمثل الهواء الداخل صدره..

بل كمثل موج البحر!

يحرك فمه المغلق فترهقه عضلات فكه كأنما تحمل أطنانًا!

يريد أن يصرخ فيشعر أن صدره قُدَّ من صلب لا يلين..

هو لا ينام على أرض.. لا يشعر بإحساس الاستلقاء في ظهره..

لكنه ملقًى في نفس الوقت!

لا فوق..

لا تحت..

لا نهار..

فقط ليل..

ليل بلا آخر..

❀❀❀

بدأ يسمع........

الحاسة الوحيدة الباقية على حالتها، والتي لم يزدها الظلام حدة كما هو الطبيعي في مثل هذا الموقف..

فحيحٌ من بعيد يأتي ويذهب – كموج البحر ثانية..

السمع يأتي ويذهب كموج البحر!

الذكرى تأتيه وتذهب كموج البحر!

لا يفهم.. ثم يفهم.. لا يفهم.. ثم يفهم

كموج البحر.....

كل شيء هنا يتحرك كموج البحر!

السمع..

الذكرى..

الإحساس..

إلا الظلام، الوحيد الثابت كأنما من أصل المدى ينبع!

فحيحٌ وأصوات..

هناك أصوات..

تأتي وتذهب، تأتي وتذهب..

عقله يرتب الحروف التي تأتيه مترددة، متشتتة كزبد البحر..

– «صدفة.. لا.. تتكرر».

يأتي الصوت من ناحية رأسه؛ من ناحية جبهته..

هكذا بدأ يدرك الاتجاهات نسبة لجسده الملقى في السديم..

وتارة أخرى يأتي من جهة قدمه..

يأتي ويذهب، يأتي ويذهب، كموج البحر..

يرتب الحروف التي تصله بتلك الوتيرة المَوجية

- «صار.......»

الصوت يأتي ويذهب..

- «هو........»

الصوت يأتي ويذهب..

- «السيكتوريوم!!».

❀ ❀ ❀

(4)

مقهى ناءٍ..

أصوات زواره هادئة..

مجموعة من كبار السن الذين عزفوا عن الحياة قبل أن تعزف هي عنهم، وفي ركنه القصي يجلس الثلاثة؛ (الحديدي) و(بيدو) يحيطان بـ(الشاعر) الذي يتكلم بصوت هامس يخاف أن يكسر به صمت العازفين عن الدنيا:

- «ما سأقوله أغرب من الخيال.. هو محض تخمين ولكن....... أحسب أن لا معنى آخر لما حدث إلا هو..».

مزيد من الصمت لترتيب الأفكار، والتأكد من استمرار عزوف العازفين عنهم..

مزيد من النظرات الزائغة، ثم مزيد من همس (الشاعر) مع كوب من الشاي وضعه صبي المقهى أمامه:

- «تعلمان أني منذ زمن مغرم بكل ما يتعلق بالطاقة؛ العلاج بالطاقة والألعاب القتالية المتعلقة بها، ولي في هذا المجال معلمون كثر.. من هؤلاء المعلمين - وهذا الذي يهمنا - معلم يسكن في أطراف مدينة السادس

من أكتوبرليعيش بعيدًا عن الزحـام.. اشترى لنفسه قطعة أرض صغيرة بنى عليها بيتًا وحديقة يعيش على زرعها.. حقيقة لا أدري، ولكن منذ أن رأيته ارتبطت به جدًا.. هل كانت الأرواح المجندة أم الطاقة؟

كما قلت.. لا أدري، ولكن من الأمور التـي تسلم بها حينما تعيش في عالم الطاقة هـو الانسجـام؛ انسجام الموجـودات.. نحن لا نسـأل كثيرًا ساعتها، ولكـن نسلم لهـذا الانسجـام، فيـزداد.. وهكذا مـا تعجبت من انسجامي الشديد مع معلمي ولا تعجب هو.. علمني كل ما يعلم، وأعطاني من أسراره ما لم يعطه لأحد، وختم هذا بأن أعطاني عصا الطاقة الخاصة به...

نعم يا حديـدي!! هناك عصيٌّ للطاقة ويعـرف فائدتها ممارسو العلاج بالطاقة.. العصا هذه ما هي إلا وسيلة تساعد على تجميع الطاقات المختلفة في بؤرة واحدة؛ أتكلم هنا عـن طاقة المعالج، طاقة الكـون وطاقة المعلم الذي علَّم المعالج..

المهم..

هـذه العصا – سـواء صدقـت بوجودهـا أم لا – أهدتهـا لـه معالجة فرنسـية قابلها يومًا.. تلك المعالجـــة أخبرته بمجيء العصـا من التبت، وأن طاقتها لم تنسجم معها.. نفس الأمر حدث بالنسبة له، وكذلك بالنسبة لي.. لم تنسجـم تلك العصـا مـع أي منـا، حتـى جاءني (سكـر) يومًا لجلسة عـلاج.. كانـت مفاصلـه تئـن ألمًـا، وكان الأطبـاء قـد عجزوا بأدويتهم معه فجاءني طالبًا المحاولة، وبينمـا أعالجـه إذ بخاطـر يأتيني أن أستخدم العصـا معه، وكما قلت لكمـا نحن لا نسأل كثيرًا، ولا نناقش

الخـواطـر بـل نسلم لـها تمامًـا، ونسمي هـذه رسائـــل مـن الكـون أو مـن الأثير..

العجيب.. ما إن بدأت استخـدام العصا في تمريـر الطاقة لجسده حتى شعرت بالكهرباء تسري مني إليها فإليه!!

حتى هو نفسه شعر بأمواج الطاقة تأتيه منها بشكل فاق تصوره – رغم أن سكر متقبل تمامًا فكرة العلاج بالطاقة وسمع مني كثيرًا من قبل عنها بل مارس معي بعض تمريناتها..

كانت العصا كأنها مصممة له هو!!

من التبت تأتي عصا لـ (سكر) في القاهرة، أي صدفة تلك!!

وجاءتني فكرة ساعتها؛ *لم لا يحاول هو أن يعالج نفسه*؟

أعطيتـه العصا، وعلمتـه سريعًا كيـف يتحكم في توجيـه طاقة جسده، وعلى الفور لاحظت أن مسارات طاقته[5] كأنها والعصا جزء من كلٍّ..

شاهـدت هالتـه يتغير لونهـا على الفـور – نعم مـع الوقت ومـع كثرة التمرينات صرت يا (حديـدي) أرى الهالـة أحيانًا، ويفعل هـذا بالمناسبة الكثير غيري، فقط أنت لم تسمع عن هذا!!

(5) مسارات الطاقة أو الميريديان (meridians): هي مسارات يُعتقد في الطب الصيني الشعبي أن الطاقة الحيوية للجسم (التشي) تسير فيها، وبحسب الطب الصيني هناك اثنا عشر مسارًا ترتبط بالأعضاء الحيوية بجسم الإنسان وتمده بالطاقة والحياة وهي ذات المسارات التي يعتمد عليها أطباء الإبر الصينية في تحديد أماكن الإبر، ويعتقد أن هناك فوق الأربعمائة نقطة على هذه المسارات!

أدركت جزمًا أن تلك العصا كانت له منذ الأزل..

كيف جاءته؟! من صنعها؟ لا أعلم، ولم أفكر كثيرًا..

و.............»

و... نفد صبر (الحديدي)!!

كان الضغط العصبي يكاد يفجر المكان وهو يصرخ غير عابئ برواد المقهى:

- «يا شاعر.. ما علاقة هذا بموضوعنا؟ نحن لا نجلس معك لنسمع هذا الهراء.. إن اختفاء (سكر) إن لم يقدر الله له الغرق لن يعدو أن يكون حادثًا جنائيًا، إن الوقت الذي نضيعه معك هنا.........».

لم يكمل (الحديدي) كلامه من شدة العصبية وقام من مجلسه لينصرف لولا أن أمسك به بيدو وهو يهدئه:

- «اجلس يا (حديدي)..لا يعقل أن يحدثنا (الشاعر) هكذا من باب الهراء..هناك هدف من وراء هذا الكلام كله.. يا (شاعر)..أرجوك.. قل ما تريده ولكن حدد لنا مقصدك سريعًا».

زاد توتر (الشاعر) وهو يرد:

- «نعم..نعم.. أنا مثلكم محترق الأعصاب، ولكني منذ سمعت بالحادث في هذا اليوم بالذات وأنا موقن ألا صدفة في الأمر....».

سأله (بيدو) متعجبًا:

- «ماذا تقصد بـ (هذا اليوم بالذات)؟».

رد (الشاعر) بصوت خافت بعد أن شاهد العديد من رواد المقهى يميلون برءوسهم ناحيتهم:

- «متى كان اختفاء (سكر) يا بيدو؟ فكِّر معي.. ألم نكن نتحدث في هذا من قبل؟ ألم يكن يوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر في العام الحادي عشر؟ ألم تفكر في الأمر؟!».

ثم كرر ما قاله ثانية وهو يشير بأصابعه كأنه يرسم الأرقام:

- «11/11/11.. الأمر واضح أليس كذلك؟».

شهق (بيدو) وحدقة عينه تتسع مع انفجار الحديدي ثانية:

- «هل سنظل نتكلم بألغاز القصص هذه كثيرًا؟!».

ولكن (بيدو) و(الشاعر) تجاهلاه، و(بيدو) يكمل:

- «هل تظن........».

أجاب (الشاعر) مسرعًا:

- «قطع في السماء.. أداة سحرية.. صوت فحيح.. ليس للأمر معنى آخر، أما كيفية حدوثه فعلمه عند ربي!!».

ثم نهض ممسكًا بذراع (الحديدي):

- «تعال معنا يا حديدي. .سنكمل حوارنا في الطريق».

- «في الطريق!!! إلى أين؟».

رد الاثنان معًا - (الشاعر) و(بيدو):

– «الملاحات طبعًا!».

ولم يلتفتا لاعتراض (الحديدي) بل دفعاه دفعًا خارج المقهى!

❀ ❀ ❀

أوقف (الحديدي) السيارة علـى جانب الطريق قبل الوصول للملاحات بحوالي مائة متر لما رأى المكان مشغولًا بحركة غير عادية؛ عشرات السيارات الواقفة على جانب الطريق، عشرات الأشخاص من جنسيات مختلفة، العربي والآسيوي والأوروبي!!

قال (بيدو) بصوت خافت متردد:

– «أخشى أن هذا يؤكد كلامك يا (شاعر)، ويبطل أي نظرة جنائية للأمر!».

نزل (الحديدي) من السيارة، واستوقف أول صياد قابله من ساكني الملاحات ليسأله عن هذا الزحام فأجاب أنهم – الصيادون– فوجئوا بتلك السيارات تأتي من الصباح حتى ملأت المكان ثم ذلك الرجل – بادي الأهمية – والذي عرض عليهم شراء عششهم بأسعار باهظة..

– «وهل بعتموها؟».

– «وماذا تظن يا هذا؟!».

❀ ❀ ❀

انفجر (الحديدي) صائحًا – بعد أن ساد الصمت داخل السيارة:

– «**هل سيخبرني أحد بما يجري هنا.. ما معنى كل هذا؟**».

همَّ (الشاعر) بالكلام لولا أن (بيدو) أوقفه وهو يمسكه من يده:

– «دع لي الكلام هذه المرة يا (شاعر)، أعتقد أن (الحديدي) سيفهم مني أفضل لو شرحت له ما حدث بيننا منذ فترة!».

ثم التفت إلى (الحديدي) وهو يكمل بصوت تعمد أن يكون هادئًا بقدر المستطاع:

– «تعلم يا (حديدي) أني أعمل في تحليل المياه منذ فترة طويلة.. تقتضي طبيعة عملي أن أطوف في المحافظات لأخذ العينات المختلفة للمياه.. منذ أسبوع كان الدور على الإسكندرية وبطبيعة الحال لا تعد المياه المالحة في الملاحات مجالًا لأخذ العينات، ولكني أخذتها من باب الفضول لدراستي وبحثي الشخصي في نوعيات المياه المختلفة.. هذه العينة يا (حديدي) غيرت الكثير – قالها وهو ينظر إلى (الشاعر) بطرف عينه – إذ فوجئت أن بنية ذرات المياه متغيرة تمامًا بشكل عجيب، في الواقع كانت ذراتها يتغير شكلها باستمرار وبجنون لا ينتهي وكأن مسًّا أصابها!!».

ظهرت الدهشة على وجه (الحديدي) وهم بقول شيء ولكن (بيدو) قاطعه بيده وهو يكمل:

– «دعني أكمل يا (حديدي) حتى تتضح لك الصورة تمامًا.. بطبيعة الحال لم أفهم أنا وزملائي الذين عرضت عليهم تلك النتائج معنى تلك العينات، وشغلنا هذا الاكتشاف أيامًا طويلة دون وصول لنتيجة، وكاد الأمر يذهب إلى طي النسيان وسط هموم العمل لولا أني أفضيت به في جلسة لي مع (الشاعر) فأدهشني جدًّا اهتمامه البالغ بما قلته.. الأعجب من

اهتمامه بشكل الذرات كان اهتمامه بالمكان الذي أخذت منه العينة، حتى إنه أصر على أن يعرف إحداثيات المكان بدقة ويحددها على الخريطة!!».

قاطع (الشاعر) (بيدو) قائلًا بصوت حذر:

– «يمكنني أن أكمل من هنا يا (بيدو)»

ثم أخرج من جيبه بضع أوراق مطويات ووضعها على طاولة السيارة أمامه – و إن لم يفضها – وهو يكمل على شرح (بيدو):

– «قبل مجلسي مع (بيدو) يا (حديدي) كنت قد عدت للتو من رحلة للصين جلست فيها بضعة أشهر مع أحد أبرز معلمي فن الفنج شوي[6]؛ فن تناغم الطاقة مع الكون والأشياء من حولنا.. من الأمور التي لفتت انتباهي جدًا في هذا الأمر ما يطلق عليه (نقاط الفورتيكس)، وهي أماكن في العالم تصل فيها الطاقة لأعلى مستوياتها.. بؤر طاقية غير عادية أشبه ما تكون ببوابات لمجالات وأبعاد مختلفة من الطاقة.. بعض تلك النقاط معروف جدًا وستعجب أن بعض أشهر الأبنية الدينية مبنية عليها!! هاكما خريطة بتلك النقاط طبعتها على عجل من على النت قبل مجيئي».

(6) feng shui أو الفينج شوي: هي فلسفة صينية تهدف لإيجاد تناغم وتوازن بين الإنسان والبيئة المحيطة به. يعني لفظ (فنج شوي) حرفيًا «الرياح – الهواء». واللفظة تعد اختزالًا ثقافيًا مأخوذًا من النص التاريخي المفقود (فن الدفن) والمذكور في ملاحظات (جو – بو) حيث قال: الفنج شوي هو أحد فنون ما وراء الطبيعة الخمسة في الصين، ويصنف ضمن علم الفراسة. تتم ممارسة فن الفنج شوي حتى يقدر البشر على التعامل والعيش مع الطاقات غير المرئية التي تربط الكون والأرض والإنسان معًا، والتي تعرف باسم (التشي).

ثم فض الرقعة على ركبتيه مفصحًا عن خريطة لقارات العالم بها خيوط متقاطعة تكون عشرات المثلثات، وخريطة أخرى مثيلة لمصر ثم قال وهو يشير لنقاط تقاطع تلك الخطوط في الخريطتين عند رءوس المثلثات:

– «تلك النقاط هي الفورتيكس حيث – في كثير من الأحوال – بنيت أشهر المباني الأثرية مثل الأهرامات أو المباني الدينية، أو مبانٍ أخرى ذات أهمية كأجهزة المخابرات وأجهزة الأمن، وبالطبع أشهر تجمعات السحر كذلك!!

الآن.. على غرابة تلك المعلومة فهناك قاعدة يجب توضيحها.. الطاقة لا شر فيها ولا خير.. بل هي نية مستخدمها، لذلك تشعر بالراحة وبالروحانيات لما تدخل تلك المباني الدينية المبنية عليها، وفي نفس الوقت تشعر بالانقباض الرهيب إذا تصادف ودخلت تجمعًا سحريًا أو مبنى من مباني الأمن الرهيبة تلك..

البناة الأقدمون والمعاصرون انتبهوا لهذه الخاصية وراعوها بشدة في بناياتهم، ولكن – وهذا هو الأهم – بعض تلك النقاط لم يعرف أحد كيف يتعامل معها بأي شكل من الأشكال وكأن ذبذباتها غير معروفة أو عصية على التطويع، وغالبًا كانوا يعجزون عن تحديد مكانها بدقة ويكتفون بالنطاق العام..

لذا لما أخبرني (بيدو) بتغير تركيب ذرات المياه أثار هذا فضولي فأنا أعلم أن الإسكندرية بها أحد تلك النطاقات – ثم أشار إلى الإسكندرية في الخريطة وهو يتكلم..

لم يعرف الناس مكانها على وجه التحديد ولكن شعروا بها في نطاق كبير.. نطاق يكاد يشمل - من كبر حجمها - جنوب الإسكندرية بأكمله!».

ثم أخرج من جيبه خريطة أخرى وهو يكمل:

- «انظروا معي لتلك الخريطة التي رسمها أحد المعلمين الذين قابلتهم يومًا ما.. هي مرسومة اعتمادًا على خريطة الإسكندرية.. كما ترون مكان كل نقطة فورتيكس ستجدون رمزًا متكررًا رسمه معلمي بيده مثل حرفي (e) متعاكسين رأسًا على عقب..

الآن دققوا أكثر وسترون أن منطقة جنوب الإسكندرية ليس فيها نقطة فورتيكس واضحة، ومع ذلك هناك نفس الرمز الذي رسمه في باقي نقاط الفورتيكس..

واضح إذن أن هذا الرمز يعني به نقاط الفورتيكس.. لكن عند جنوب الإسكندرية رسم المعلم هذا الرمز على نطاق واسع جدًا وبلون خافت كأنه خلفية للخريطة!

للأسف هذا المعلم متوفى منذ عشر سنوات ولا يمكنني التواصل معه للتأكد من مغزى ذلك بدقة، ولكن ما فهمته هو أن النطاق واسع جدًا، أقصد نطاق نقطة الفورتيكس، وغير معلوم أين تقع نقطة المنتصف ولهذا لم يرسم هذا الرمز بنفس الطريقة التي رسم بها في باقي الخريطة..

لم يعرف أحد نقطة المنتصف تلك حتى جاءت تلك الصدفة غير العادية بتحليل (بيدو) لجزيئات المياه، ولم يكن عليَّ سوى إحضار كاميرا

كيرليان[7] الخاصة بي - التي تلتقط عدساتها يا (حديدي) مجالات الطاقة - وأخذ بعض الصور للمكان لنتأكد.. وبالفعل تأكدنا!».

ثم سكت قليلًا ليتأكد من استمرار تركيز (الحديدي) قبل أن يكمل:

- «ما وجدناه كان عجيبًا حقًّا؛ ينابيع من الطاقة المتفجرة في كل مكان، دعني أخبرك أن هذا ليس دأب المياه المالحة على الإطلاق، بل العكس هو ما يحدث مع المياه المالحة، فهي تمتص الطاقة بسرعة كبيرة، وهو - بالمناسبة - سر شعورنا بالجوع بعد خروجنا من البحر!

المهم أننا ومع تأكدنا تعاهدنا على الكتمان، فلا يعلم أحد كيف يستخدم هذا المكان.. من يدري هل مستخدمه سيكون للخير أم للشر؟».

سكت (الشاعر) قليلًا متأملًا وقع كلامه على (الحديدي) الذي بدا شاردًا قليلًا قبل أن يشير (للشاعر) بدون تركيز أن يكمل فاستطرد متعجبًا من شروده ذلك:

- «الآن لنجمع الخيوط؛ (سكر) اختفى في الملاحات في نفس المنطقة التي رصدناها أنا و(بيدو)..

(سكر) كان معه أداة طاقة في غاية القوة..

(سكر) اختفى يوم (11-11-11) يوم السحر في العالم؛ يوم احتفال الماسونية بأعلى الدرجات في هيكلهم، الدرجة رقم 33، الرقم السحري

(7) كاميرا كيرليان: جهاز خاص لتصوير الهالة الضوئية أو الجسم الأثيري (aura)، اخترعه روسي اسمه سيمون كيرليان بعد أن بذل مجهودًا دام ثلاث سنوات من عام 1936م إلى 1939. وسمي الجهاز باسمه وسمي التصوير بتصوير كيرليان Kirlian photography.

الذي لا يعرف خاصيته أحد إلا من وصل لتلك الدرجة، ويقال إن شاغل الدرجة هو الشيطان نفسه، ولا أستبعد أنا هذا شخصيًّا من كثرة ما قرأته عن ممارساتهم السرية!!

أضف لكل هذا ذاك التجمع الذي تراه أمامك...

أنت الآن ترى ألا صدفة هناك..

بقليل من الخيال وبربط الخيوط التي أمامنا يمكننا أن نعرف ما حدث..

شهادة الشهود أن السيارة حدث فيها عطل في هذا المكان، سرطان زجاج وانفجار إطار في الثانية عشرة مساء - هل تظنها صدفة؟!

الركاب نزلوا حتى إصلاح الإطار وتنظيف الزجاج المكسور..

البعض تمشى قليلا والبعض استلقى على الأرض بجوار الملاحات، ومن معرفتي (بسكر) فهو من الفريق الأول حتمًا - نزل ليتمشى - الآن أنا و(بيدو) نعرف جيدًا ما يهواه (سكر).. فقط نعرف أيضًا أن معه هذه المرة عصا طاقة متميزة جدًّا..في مكان متميز جدًّا.. في وقت متميز جدًّا.. هل تتخيل يا (بيدو) ما الذي يفعله (سكر) في الظلام بعصا كهذه؟؟».

رد (بيدو) على الفور وكأنه كان يتخيل المشهد مع الشاعر طيلة الوقت:

- «تعويذات هاري بوتر دون تفكير يا (شاعر)، وبالتأكيد لو كان الظلام دامسًا - كما لنا أن نتخيل - فهي تعويذة لاموس».

قاطع (الحديدي) كلامهما بصوت نافد الصبر:

- «الآن.. الآن.. هل ستخبراني أن تعويذات تلك الروايات حقيقة؟».

رد (الشاعر) بصبر نافد:

«يا (حديدي) هذه روايات خيالية، بالتأكيد ليست التعويذات حقيقية.. القضية في النية - قاعدة الطاقة الأولى.. الطاقة تذهب أينما تتوجه نية قائلها، هكذا علمونا؛ Energy flows where intention goes..

الآن أكرر من جديد؛

نية (سكر) كانت في السحر.. قصد هذا أم لم يقصد..

معه عصا طاقة..

في بوابة طاقة..

في وقت لا يتكرر إلا كل ألف عام».

سكت (الشاعر) وهو ينظر في عين (الحديدي) الذي عاد لشروده ثانية قبل أن ينتبه لتلك النظرات المسلطة عليه فبادله النظرات ثم سأل ببطء:

- «هل تعنيان...........؟».

أكمل (الشاعر) كلام (الحديدي) على الفور:

– «ليس هناك معنى آخر لكل هذا يا (حديدي).. لقد فتح (سكر) بوابة الطاقة، وللأسف فتح البوابة بنية السحر.. ما لم أكن أعرفه أن تلك البوابات يمكنها أن تستوعب بشرًا، كنت أظنها فقط لعبور الطاقات المختلفة!».

نظر (الحديدي) إلى تجمع الناس من بعيد ثم قال مترددًا:

–«هل تعني إذن.. أن... كل هؤلاء..........».

قاطعه (الشاعر):

– «نعم يا (حديدي).. هم سحرة... سحرة كما يقول الكتاب!».

(5)

الظلام يصير له ملمس..

ومع الوقت تصير له رائحة..

حتى وجفنه بعد لم ينفتح يشعر بعمق الليل يحيطه، ويرى أشكالاً عن بُعد تتحرك..

لسبب ما لم تخفه تلك الأشكال!

ولسبب ما يجدر بهم هم أن يخافوا!!

❀ ❀ ❀

(6)

لأن الصداقة بينهما امتدت من أثير عالـم الإنترنت إلى عالم الواقع فقد كان طبيعيًـا أن يبيت (بيـدو) و(الشاعر) معًا فـي أحد فنـادق الإسكندرية المطلة على البحر..

(الحديدي) أيضًـا بطبيعة الحال اختار أن يبيت وحـده في منزل يمتلكه ولم يدع أيهما للمبيت معه..

طبيعي أيضًا أن يجافي النوم أعينهما وهما يتناقشان معًا فيما حدث..

ومهما حاولا إيجاد تفسيـرات منطقية تدعم شك (الحديـدي) الجنائي، فإن النقاش كان يصل بهما دومًا إلى نقطة واحدة لا مفر منها.......

ما حدث ليـس جنائيًا بالمـرة مهما مـال العقل لهـذا... .الصدف لا تجتمع هكذا أبدًا!!

❀ ❀ ❀

بعـد صلاة الفجـر بدقائق جـاءت لـكل واحد منهمـا تلـك الرسالة من (الحديدي) على هاتفه المحمول:

(أعتقد أن لدي الجديد. .قابلاني عند شارع النبي دانيال... أنا هناك الآن!!).

❀ ❀ ❀

عند أول شـارع النبي دانيال وجـداه جالسًا على مقعـد لمقهى لم يُغلق أبوابـه بعد – أو ربما خـاف صاحبه مـن منظر (الحديـدي) مكفهر الوجه أشعث الشعر مع ضخامة جسده، فلم يجرؤ على غلق الأبواب!!

ما إن رآهما حتى توجه ناحيتهما بسرعـة ووضع يده على كتفيهما وهو يقودهما – قهـرًا– إلى مسجد النبـي دانيال قائـلا دون أن يسمح لهما حتى بالتعجب:

– «سأشرح كل شيء.. تعاليا فقط معي الآن».

❀ ❀ ❀

دخـلا المسجـد خلـف (الحديـدي).. رطوبة الفجـر تهـدئ قليلًا من اضطراب أنفاسهمـا، وفي ركن المسجد جلسوا بعيدًا عـن البقية الباقية من رواده..

المسجد مطفأ الأنـوار وعند المحراب يجلس شيـخ صغير الجسد، بهي الطلعة، له لحية خفيفـة مختلط بياضها بسوادها، يرتـدي جلبابًا رصاصي اللون وحوله مجموعة من المريدين في حلقة ذكر..

كان رتم الذكر هادئًا غير مفتعل، يدخل إلى القلب سريعًا دون حواجز وهم يرددون جميعًا بصوت خافت لفظ الجلالة..

كان مد حرف العلة قبل نطق الهاء شجيًا، شعـر معه (الشاعر) أن قلقه وتوتره قد بدأ يخف، ولـولا أن (الحديدي) هو الداعي لهذا اللقاء ولولا أن الظـرف لا يسمح لـكان قد انضـم إليهـم يغسـل همومه.. فـي حين ظل (الحديدي) يرمقهم شذرًا وكأنه على وشك العراك معهم!

وكالعادة تقبل (بيدو) ما يحدث حوله.. نظر قليلًا من الوقت لحلقة الذكر وعلى شفته ابتسامة بسيطة غير متكلفة، ثم أعاد تركيزه (للحديدي)

– ربما ليلحقه قبل أي تهور!

– «مزيد من الصدف».

قالها (الحديدي) بلهجة من يريد أن يشوّش على ما يسمعه، وإن حاول قدر جهده ألا يعلو صوته أكثر من اللازم، ثم أضاف وهو يعد على أصابعه:

– «بالأمس كنت جالسًا أفكر في مشكلتنا تلك..

أولًا: أنا مضطر أن أضع احتمال وجود علاقة للسحر أو الطاقة في اختفاء (سكر).. شخصيًا أميل لموضوع السحر أكثر من الكلام عن الطاقة هذا، فهو على الأقل مذكور في القرآن وثابت تاريخيًا وواقعيًا..

ثانيًا: المكان هذا يمتلكه الآن مجموعة من الناس ربما يكونون من السحرة – لو كان كلامكما صحيحًا – وهذا يدعم أكثر فكرة السحر من وجهة نظري..

ثالثًا: من الواضح أن البحث العادي لن يجدي نفعًا.. نحن نحتاج إذن لتفكير من نوع مختلف.......»

صمت (الحديدي) قليلا ليتأكد من استحواذه على انتباههما قبل أن يكمل:

– «المهم.. منذ بداية سردك بالأمس يا (شاعر) عن نقاط الفورتيكس، ومنذ رؤيتي تلك الخرائط وهناك شعور بالألفة داخلي ناحيتها لا يفارقني!!

كنت متأكدًا أني احتككت في حياتي، أو في مطالعاتي للمخطوطات بأمر يتعلق بتلك الخرائط..

ظللت طيلة الليل أحاول الوصول لسر ذلك الإحساس بلا جدوى، غير أن شرودي قادني لبحث عشوائي على النت – دون قصد مني – عن عِصي الطاقة التي ذكرت أمرها يا (شاعر)، وإذا بي أجد الرابط الذي حيرني!

أغلب المواقع التي تضع صور عصي الطاقة أجد منقوشًا عليها – أقصد العصي – رموزًا شبيهة بذلك الرمز الذي شاهدناه على خريطتك تلك، والعجب لم يكن في تكرار هذا الرمز، وما كان ليشدني أصلًا لولا أن هذا الرمز بالذات له وجود في ذاكرتي!!

نعم..

حين شاهدت الرمز ثانية في هذا البحث أيقنت أن هذا هو الذي أشعر ناحيته بالألفة وليس الخرائط.. لم أتذكر بالضبط أين رأيته من قبل، ولكني كنت متأكدًا من وجوده في حنايا ذلك المخزن (قالها وهو يشير إلى عقله بسبابته).

وحين فشلت تمامًا في تذكر أين رأيته، ودخلت لأنام قليلًا تذكرت فجأة، وازداد عجبي لتعلقه أيضًا بالإسكندرية!

وبالتحديد أكثر لهذا الشارع الذي نحن فيه الآن!!».

نبّه (الشاعر) (الحديدي) لخفض صوته قليلًا بعد أن أخذته الحماسة..

كان المسجد قد بدأ يخلو من رواده بعدما انتهت حلقة الذكر وانصرف الشيخ، ومن أحد أبواب المسجد الخلفية انطلق صبي صغير يجري.

أكمل (الحديدي) دون انتباه لهذا الصبي:

– «هل سمعتما عن تابوت الإسكندر؟!!»

وعلى الرغم من خفض الصوت هذه المرة فإن الدهشة التي ظهرت على وجهي صاحبيه كانت أشد زعقًا من صراخه...

لكن (الحديدي) أكمل دون انتباه:

– «تعلمان أني مهتم بالحضارات القديمة..أبحث عن أخبارها في كل مكان...أبحث عن المخطوطات.. ولي ولع خاص بالخرائط القديمة..

من ضمن تلك الخرائط خريطة الإسكندرية القديمة..خريطة رومانية على وجه الدقة..هي ذات الخريطة التي اعتمد عليها الأثريون في البحث عن تابوت الإسكندر..كان الاعتقاد أن قبره موجود هنا في شارع النبي دانيال، والحقيقة – التي عرفتها بعد بحث طويل في كل ما ورد من أخبار حول هذا الموضوع – أنه بالفعل كان هناك تابوت، وكان مستقره في هذا المسجد، ولكن سرقه الفرنسيون وقت الاحتلال الفرنسي، وحاولوا تهريبه على متن سفينة بريئة المظهر متخذة شكل مستشفى عائم وسط أسطول حربي يحميها..

الحقيقة الثانية؛ أن الإنجليز وجدوا السفينة تلك واعترضوها في قلب المحيط، وخطفوا التابوت منها، وتم تهريبه إلى المتحف البريطاني، ولما

فتحوه كان التابوت فارغًا وعليه كتابات بالهيروغليفية.. كان هذا عام 1801 ولم تكن أحجار رشيد قد فك طلسمها بعد..

لو حدث هذا لعلموا أن المنقوش ليس كله هيروغليفيًا، بالأخص هذا الرمز الذي ظهر عن غير مثال سابق؛ رمز حرفي الـ(e) المتعاكسين– صحيح طريقة رسمه تبدو مختلفة بعض الشيء ولكن بالتدقيق فيه أكثر سيظهر..

تلك الخريطة القديمة – التي للأسف لم أحضرها معي من القاهرة – لم يظهر فيها هذا الرمز سوى في مكانين بالإسكندرية وأغلب الظن لأهمية هذين المكانين، أحد هذين المكانين هنا في قلب هذا المسجد – مما يدعم نظريتك يا (شاعر) بوجود أبنية دينية فوق نقاط الطاقة– أما المكان الآخر فسأترك لكما تخمين أين هو، لكن دعاني أكمل لكما القصة!».

ثم سكت قليلًا منتبهًا لعودة الصبي الصغير الذي دخل مسرعًا وجلس في ركن بعيد، وسرعان ما افترش ساعده الأيمن ونام عليه، فأكمل (الحديدي):

– «القصة تعود إلى العهد الإغريقي، إلى المهندس دينوقراطيس الذي عهد إليه الإسكندر ببناء المدينة.. المهندس هذا هو من لديّ خريطته، أو بالأحرى صورة للمخطوط الذي به الخريطة، وحين أفكر أكثر أكاد أوقن أن هذا الرجل يعرف كل شيء عن تلك النقاط التي تكلمت عنها يا (شاعر)..

حينما صمم دينوقراطيس المدينة صممها على النظام الشطرنجي الإغريقي الشائع وقتها، حيث مجموعة من الشوارع الفرعية تتعامد مع

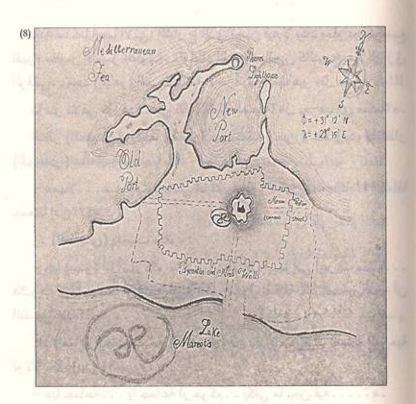
شارعين رئيسيين أحدهما من الشرق للغرب، وهو الذي سمي قديمًا شارع الكانوب، ويطلق عليه الآن شارع الحرية.. والآخر من الشمال للجنوب ويسمى شارع السوما أو الجبانة الملكية، والذي يطلق عليه شارع النبي دانيال حاليًا..

أنتما تتخيلان الآن شكل الخريطة.. شارعان متعامدان يشكلان علامة (+).. في نقطة المنتصف تمامًا الرمز الذي نعرفه في نفس المكان الذي بُني فيه هذا المسجد الذي نجلس الآن فيه!!!

أنا أتكلم هنا عن نقطة طاقة في منتصف تقاطع الشارعين بالضبط...

هل هذه صدفة؟

(8)



(8) صورة للخريطة الرومانية وجدت في بيت الحديدي في وقت لاحق.. يتضح فيها ناحية الشمال البحر الأبيض المتوسط والفنار القديم على جزيرة فاروس ويظهر كذلك الميناء القديم والميناء الجديد، وفي الجنوب تظهر بحيرة ماريوط.. في منتصف الخريطة تبدو معالم السور الذي أحاط بالمدينة القديمة حيث يتقاطع في وسطه شارعا السوما والكانوب عند مسجد النبي دانيال.. (ملحوظة: واضح أن رمز المسجد تم إقحامه على الخريطة لكون المسجد لاحقًا على رسمها تاريخيًا)

خذا عندكما أيضًا الآتي: الشارع الذي نحـن فيه لا يكاد يخلو من موضع لقبر؛ مقابـر الأسـر العلويـة. . أولياء اللـه الصالحين كالشيـخ عبد الرازق الوفائي. . معبد (إلياهو) النبي للطائفة الإسرائيلية ومشاهير مثل محرم بك!!!

ما سر تلاقي كل هؤلاء في تلك النقطة الضيقة! هل يعرف أي منكما؟».

انتظر (الحديدي) ردهما وانتظرا هما تكملته وحين لاحظ (بيدو) انتظار (الحديدي) سأله بدهشة:

– «مهلًا. . . هـل أنت تحكـي لنا كل هـذا ولا تعرف معنـاه؟؟؟ فلماذا جمعتنا إذن؟؟؟»

رد (الحديدي) بغضب مكتوم:

– «يا (بيدو) أنا أشاركم ما لدي. . لم أقل أبـدًا إني أعرف معناه. . . فكـرت ربما – بمـا أن بيننا خبيـرًا في أمـور الطاقة تلك كمـا يزعم – أن التفسير عنده!!».

كاد (الشاعر) يشتبـك مع (الحديدي) من جديد مع تلـك اللهجة الموحية لولا تدخل (بيدو) السريع:

– «يا جماعة. . . يا جماعة أرجوكم. . يكفي ما نحن فيه. . . . . .».

«لو سمحتم. . . . .!»

قاطعهم ذلـك الصـوت فالتفتوا ليجـدوا الطفـل الصغير وقد تسلـل إليهم خلسة، ولم يعرفوا هل كان يتصنع النوم طيلة هذا الوقت ويستمع إليهم أم لا! كاد (الحديدي) أن يصرفه بغضب لولا أن الولد أسرع مكملًا:

– «أعتذر عن مقاطعتكم هكذا ولكن سيدنا الشيخ يدعوكم للإفطار معه، وقال لي إنه يعرف ما تتكلمون عنه!».

❀ ❀ ❀

(7)

الشعور ببدايـات جسـده وأطرافه – فقط لـو أن جسده يمتـد عشرات الأمتار شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا!

لماذا يشعر وكأن يده تطول المدى!

يقرر أن يتحرك. .

يشعر بسريان الدم فـي أصابع قدميـه، فصعودًا إلـى ركبتيه فحوضه وصدره. .

يحرك رقبته يمينًا ويسارًا. .

يحرك ساعديه. .

يتلمس وجهه بأنامله. .

لم يزل حيًّا!

. . . .

من جديد يسمع ذلك الهمس. .

من بعيد يسمعه. .

لا. .

بل هو اغتصب الكلام من عقول أولئك الهامسين.. لم يأته الكلام إلى أذنه بل هو أتى به!!

عقله بشكل ما يتقبل هذه الحقيقة!!

- «لقد استعاد وعيه».

- «ماذا نفعل إذن؟».

- «لو كان حقًّا السيكتوريوم.. فلا مهرب لنا منه.. بل غالبًا هو يسمعنا الآن!!».

- «هو السيكتوريوم...... ولا مهرب لنا بالفعل».

يشعر بفزع ينتابه..

كان يفزع كثيرًا وهو صغير فتتحرك دفاعات عقله لتحميه، إما بإلقام كلب ينبح حجرًا، أو بحذاء يدهس حشرة - ليس لها ذنب في شكلها المفزع..

وكم لامته أمه على ردود أفعاله غير المناسبة..

يشعر الآن أن من عقله تنطلق نفسها تلك الدفاعات..

دفاعات الطفولة الممتلئ بها عقله..

لكن.. لها ملمس هذه المرة!!

و تخرج لتصيب هدفًا!!

يشعر بها تطوف في المدى.... ثم يسمع عن بعد صراخهم الشنيع!

صراخ ألم لم يسمع مثله من قبل!!

يفزع أكثر..

فتزيد الأصوات حتى تفنى ويفنى أصحابها!!

❀ ❀ ❀

(8)

مشى الثلاثة خلف الصبي إلى غرفة صغيـرة ملحقة بالمسجد، كان في انتظارهم الشيـخ صاحب حلقة الذكـر جالسًا على مقعـد أرضي بسيط مثل باقي متعلقات الغرفة..

علـى الحائـط خلفه صـورة لطفـل، وعلـى ركنهـا الشريـط الأسود الجنائزي الشهير..

تكلم الشيخ بصوت واهن:

–«سامحوني على مقاطعتكم.. وسامحوني أكثر إذا قلت إنكم في منتهى السذاجة!!».

انتفض الثلاثة من كلام الشيخ الواهن، وكاد (الحديدي)– وقد بلغت به العصبيـة مبلغها– يدخـل في عراك معـه لـولا أن سبقه الشيـخ لاستكمال كلامه:

– «ليس من الحكمة بالمرة أن يتكلم أحد بما تكلمتم به هكذا على الملأ.. ليس هذا فقط ولكن بهذا الصوت الصاخب لصاحبكما!!!».

نظر (الشاعر) و(بيدو) بلوم إلى (الحديدي) والشيخ يكمل:

– «ولكـن......لا أظنهـا صدفـة أبـدًا أنكـم جئتـم في هـذا الوقت بالذات!!حسنٌ، لا يوجد شيء اسمه صدفة..

في الواقع هناك ترتيب ومكر يفوق ما في ذهننا جميعًا.. بالمناسبة هل أفطرتم؟».

كاد (الحديدي) أن يفقد صبره نهائيًا وينفجر مع تغير مسار حديث الشيخ فجأة لولا أن بادر (الشاعر) بالرد:

– «ليس بعد...هل لنا أن نفطـر معك يا سيدي؟ (نطق الكلمة الأخيرة بكسر السين)».

نظر الشيخ (للشاعر) نظـرة عميقة وسط دهشة صاحبيـه من جرأته ثم قال بعد صمت قليل:

– «إذن أنت تصدق وتعتقد..... همم.......».

ثم نظر (للحديدي) وهو يقول:

– «ولدينا هنا على ما أظن معترض!».

قاطعه (الحديدي):

– «معترض؟! معترض على ماذا أيها الشيخ؟!».

– «على ما سأقوله لاحقًا بالطبع...ولكن...أعتقد الأفضل أن نفطر قبل أي شيء!!!!».

ونظر (للحديدي) وهو يكاد ينفجر من الغيظ كأن شيئًا لم يكن مكملًا:

– «هـلا شرفتموني في بيتـي المتواضع..لا يبعد كثيـرًا عن هنا..في الواقع هو ملحق بالمسجد..تعالوا معي..فهناك سنفهم أكثر».

قالها وفتح بابًا ملحقًا بالغرفة يطل على سلم صغير قديم يشي بمرور السنين الطوال عليه.. نزل على السلم لطابق سفلي وهم خلفه ثم فتح بابًا آخر مغلقًا بقفل قديم وهو يقول:

– «هنا أعيش».

ثم أشار لهم بالدخول وهو يكمل:

– «وهنا سيكون للكلام معنى آخر».

❀ ❀ ❀

عشر دقائق كاملة مرت ولم ينطق أحدهم ببنت شفة..

عشر دقائق يطوفون في الحجرتين العتيقتين ينظرون لتلك الرسومات المنحوتة على الحوائط!!

مئات الرسومات ملأت حوائط الغرفتين كلها تصور قلعة تحيط بها بيوت قروية بتفاصيل دقيقة يصعب على أي رسام تفصيلها هكذا!!

و مئات الرسومات الأخرى عن شاب يجلس في غرفة تحيط به الأسود!!

تركهم الشيخ في دهشتهم قليلا ثم تكلم:

– «تلك القلعة....»

انتبهوا لصوته فالتفتوا إليه وهو يكمل كأنما يتكلم عن حقيقة معروفة للكل:

– «هي قلعة النبي دانيال في كركوك.. وهذا الشاب وسط الأسود بالطبع هو النبي دانيال كما عبر عنه الرسامون في أيقوناتهم!!»

قال (بيدو) وهو يقف أمام إحدى الصور لذلك الشاب وسط الأسود – لكن هذه المرة كان على ظهر أحد الأسود طفل ما:

– «يا شيخ....لست أدري كيف، لكن هذا الطفل في الصورة يشبه........»

قاطعه الشيخ:

– «نعم يشبه تلك التي رأيتموها في غرفتي بالأعلى.. هو ابني في الواقع!!!!!!»

سكت قليلًا ثم أكمل بصوت حاسم:

– «الآن هل استحوذت على انتباهكم!.. حسنٌ، دعوني أخبركم قصتي»

❀ ❀ ❀

(9)

«تأذن لنا؟»

الصوت وصل لخلاياه..

أحسه..

لم يكن من أحرف..

لم يكن من مقطوعات صوتية..

لم يكن مسموعًا..

جاءه كالخاطر..

لكنه ليس تخاطرًا..

لا.. هو أمر آخر..

الدهشة والفضول كانا متلازمين..

من يكلمه؟

و لماذا يستأذن؟

لم يشعر أنها علامة احترام بل.... خوف!! هكذا وصلت لعقله!

نظر حوله...

كان في غرفة دائرية...

الرسومات على الحائط تشي بالقدم ربما لحدود أول الزمان!

أجناس غريبة يراها مرسومة على الحائط؛ بشر وآخرون لا يتبين ملامحهم بسهولة..

«تأذن لنا؟»

الصوت من جديد..

ذاك الإحساس في باطن خلاياه..

يميز أكثر فيعرف أنهم أكثر من واحد..

الفضول غلب خوفه..

بشكل ما شعر أن فضوله خرج من عقله وتجسم، وتحرك وعبر الحائط لما وراءه!

ليس هناك باب.. تأكد من ذلك وهو يدور حول نفسه متفحصًا الحائط، ولكن إحساسًا جاءه أن الدخول من بقعة ما..

بقعة محددة..

واجهها..

ثوان ودارت تلك البقعة في الحائط حول نفسها بشكل الذرّة الشهير مختلطة بأولئك الداخلين عليه..

تجسدوا أمامه فصرخ من الرعب..

و صرخوا هم من الألم!

❀❀❀

(10)

(حكاية حدثت منذ سنوات طويلة)

المُدرسة دهشت حين سمعت إجابته للسؤال!

كل الأطفال أجابوا تلك الإجابات التقليدية. . . .

«أتمنى زيارة الملاهي».

«أتمنى زيارة الأهرامات»، «القلعة»، «حديقة الحيوانات».

و هو أجاب:

- «كركوك!! أريد زيارة قلعة كركوك!».

❀ ❀ ❀

في البيت كذلك كانت أفعاله قد صارت فوق التحمل.. فبجانب إهماله لأخيه الصغير - رغم تنبيه أمه له أكثر من مرة - فقد ملأ البيت بتلك الرسومات العجيبة بيده غير المتمرسة على الرسم، رسومات كلها اجتمعت على شكل مبهم لقلعة قديمة فوق ربوة ما!! و لما سألته أمه عن ذلك الرسم قال:

- «كركوك. . . قلعة كركوك!»

❀ ❀ ❀

حتى لما ذهبوا إلى الشاطئ ظل يحفر في الرمال شكلًا مبسطًا لقلعة لها أربعة أبواب كبيرة!

وحول القلعة استطاع بطريقة ما أن يبني ديارًا بسيطة ومسجدًا.. أجاب لما سأله أحد المصطافين:

- «كركوك. . . .قلعة كركوك»

- «و هذا المسجد يا حبيبي، ما هو؟»

- «مسجد النبي دانيال طبعًا!»

❀ ❀ ❀

كان انتقالهم لهذا البيت في هذا الشارع القديم بالإسكندرية مؤخرًا.. قيل لهم هو الشارع الوحيد الذي جمع في ثناياه مسجدًا ومعبدًا وكنيسة..

هذا لم يهم بطبيعة الحال الأب المسكين الذي رضي بذلك البيت المتواضع، القريب من المدرسة التي يعمل بها والذي يشترك حائطه مع المسجد، بالتحديد مع بقعة متطرفة في المنطقة الخلفية المطلة على حي سكني قديم.. حجرة الصبيين كانت هناك حيث الحائط المشترك..

الصبي الأكبر لم يكن متصفًا بتلك الحالة من قبل، بل كان على العكس منطلقًا، مرحًا، مداعبًا لأخيه الصغير.. فقط منذ مجيئهم الاضطراري لهذا المنزل تغير حال الولد تمامًا من أول ليلة نامها في تلك الغرفة القصية!

صار بالكاد يتكلم..

نظراته للسماء في أغلب الوقت وأحيانًا أخرى يميل برأسه ناحية حجرة نومهما وكأنه يتسمع..

قال إنه يسمع طيلة الليل طَرْقًا على الحائط تحت رأسه فعزوه لخيالات طفل حالم! وفي المدرسة كذا كانت حالته، ورغم شكاية المدرسين فإن شظف العيش لم يدع للأب – المطحون – ولا للأم – الملهية بالبيت – رفاهية الاستماع لأحاديث الصبيان.. كانت تنهي أي حوار بضربة يد تؤدبه بسبب إهماله لأخيه، أو من رسوماته التي ملأت جدران البيت..

لاحظت الأم كذلك أن الكلاب في الحارة صارت تطأطئ رأسها له إذا مرّ، وتتمسح في قدمه! ولم يلفت هذا نظر الأم إلا إلى إمكانية نقل الأمراض؛ كلاب حي مثل الذي يعيشون فيه لا يفترض فيهما أبدًا النظافة! ربما أوعزت هذا لطيبة قلبه والتي – حتمًا – تشعر بها الحيوانات – كما سمعت كثيرًا من قبل..!

❀ ❀ ❀

زاد الأمر حدة مع بداية استعماله الأزميل والشاكوش! إزميل وشاكوش وجدهما في صندوق مترب اكتشفه تحت فراشه العتيق.. كان ظاهرًا عليهما القدم الشديد، وربما امتلكهما أحد السكان من قبل..

ثم بدأ الحفر على الحائط!

هكذا ظنت هي بعقلها البسيط في البدء – أنه يحفر، ولكن الأب في إحدى الليالي حانت منه التفاتة –بعين نصف مغلقة من أثر العمل المضني- وقال بعد أن تامل أفعال الولد – المعاقب بالحبس في غرفته:

– «هل يدرسون للأولاد في هذه الأيام التاريخ البابلي!!!!».

لم تفهم الأم!! وكذا لم تفهم حين قال:

– «أكاد أقسم أنها كتابة مسمارية!!!».

«ما الذي أحضر المسامير إلى الموضوع الآن» هكذا قالت في عقلها وهي مشفقة على الزوج الذي صار يخرف من شدة التعب!

❀ ❀ ❀

قال شيخ المسجد:

– «لا تقلق.. ليس للأمر علاقة بشياطين ولا جن، بل أكاد أرى الأنوار صاعدة من ابنك لعنان السماء.. ثم أعلم، ليس كل ما تظنه بابليًا يصير سحرًا.. هل تريد أن تقنعني أصلا أنك تفرق بين الآشوريين والبابليين؟

قالها وهو يضحك رغمًا عن معالم وجه الأب غير المقتنع!

❀ ❀ ❀

انتفض الأب من نومه في يوم من أيام الإجازات النادرة على صراخ الأم وتعنيفها للولد..

وحين استفهم علم أنها كانت تنظف البيت - بالتحديد حجرة الصبيين – وحين أزاحت فراش الولد وجدت تحته رسمًا عجيبًا محفورًا بدقة؛ أسدان يجلسان بوداعة عند قدم رجل مليح ينظر إلى السماء في زنزانة ضيقة!!

❀ ❀ ❀

قال الأب على مائدة العشاء للأم:

– «كركوك قلعة في العراق، هكذا علمت لما سألت أحد زملائي، يقال إن بجانبها حي سكني قديم فيه مسجد النبي دانيال الحقيقي..».

– «الحقيقي!!!! فماذا عن الذي هنا؟»

- «هم مختلفون عليه».

- «و هذا الرسم أسفل الفراش هل له علاقة بكركوك تلك!»

نظر لها الأب برهة وكأنه يرتب أفكاره. . . .

«بل له علاقة بالنبي دانيال!!».

ثم أكمل وهو يهز رأسه متعجبًا:

«النبي دانيال هو صاحب الصورة كما رسمه الرسامون - هكذا أخبرني زميلي.. وهذه الأسود كان غرض حكام هذا الزمان أن يعذبوه بها فأبت إلا أن تتمسح به.. بالضبط كما تفعل الكلاب بابنك يا امرأة!!!

فقط أنا لا أعرف علاقة كل هذا بالولد، ولا أعرف كيف رَسَمَ تحت السرير - بهذه الدقة - رسمًا للنبي دانيال، من أين علم الولد بحكايته أصلًا!»

❀ ❀ ❀

- « لقد جن حتمًا».

- «درجات اختباراته تثبت احتفاظه بعقله».

-«ربما ممسوس».

-«الشيخ رأى الأنوار صاعدة منه يا امرأة هل سمعت من قبل عن شياطين بأنوار!» وكالعادة لم يصل بهما الحوار إلا لنقطة التسليم والدعاء له بالهداية والمزيد من قراءة الأوراد المختلفة..

❀ ❀ ❀

بالنسبة لسكان حي متواضع يمتلئ بالمقهورين كانت تلك مناسبة لا تحدث ربما في دهور.. أن تعلن الجرائد عن وجود حفريات أسفل الشارع، ربما مدينة الإسكندر نفسه، بل ربما قبره..هذا حدث لا يتكرر أجيالًا وأجيالًا!

الآن ترى سكان الحي - بمن فيهم الأب المطحون - موقدين النيران في برد الليل وهم يتفرجون على عمال الحفر النوبيين بأناشيدهم الجميلة..

شعروا كأنهم يشاهدون فيلمًا أجنبيًا عن الكنوز المخبأة..

تسلية أناس لا تجد في الحياة ما يسلي..

أراد الأب أن يأخذ الولدين فأصر الكبير على عدم الخروج، صرخ، بكى، وتمرغ في الأرض حين حاول معه بالقوة! وكذا فعل حين حاول أن يأخذ أخاه الصغير!! لم يفهم سر عصبيته ولا رفضه.. لا.. ولا فهم كذلك سر قوله وسط بكائه وصراخه:

- «لن يرجع.. لن يرجع»

ولما نجح الأب في النهاية في أخذ أخيه الصغير ذهب - الولد الكبير - مسرعًا إلى غرفته وصفق الباب خلفه بأعنف ما يستطيع وسمع الأب صوت المفتاح يغلق من الداخل!

❀ ❀ ❀

كان البكاء والعويل يصم الآذان، وتشاركت النسوة في الحي مع الأم المسكينة، كلٌ يساعد بكاءً وعويلًا.. وانتشرت الحكاية في الحي بأكمله بسرعة البرق، البعض نشرها حزنا والبعض نشرها إثارة، ولولا أن البعض شاهد بعينه الأب يومها يسير وبجواره ابنه الصغير ثم هذا الشق الذي فتح في الأرض ليبتلع الابن فجأة دون رجعة، وحتى مع محاولات

العمال وصراخ الجميع وكل السلطات التي جاءت والتي لم تفلح في إيجاد أي أثر مع استمرار انهيار التراب مكانه – لولا رؤيتهم هذا ما صدقوا شيئًا ولحسبوه خرافة بسطاء كما أطلقت عليه الصحف!

و الأم لم يعنها كل هذا وسط بكائها..

–«ابني.. أريد ابني... أين الولد يا حاج؟»

لم يعرف كيف يخبرها وهو يلمح ابنه الأكبر يرسم على بقعة خالية من الحائط هذين الأسدين بجوار رجل مليح.. أحد الأسدين هذه المرة كان يجلس على ظهره طفل صغير.. طفل صغير يشبه ابنه تمامًا!

❀❀❀

(11)

قال الشيخ مكملًا حكايته:

– «لم أكن أعرف أن هناك من يراقبني بحرص شديد وسط أحزاني تلك؛ شيخ مسجد النبي دانيال الذي جاء في العزاء يشد على يديّ، وعلى شفتيه لمحت ابتسامة لم أفهمها وقتها، ولولا علمي – وعلم أهل المنطقة كلها – بصلاحه وتقواه لحسبتها استهزاء بمشاعري لا يقبل.

و هكذا مرت أيام العزاء بمرها وثقلها عليّ وعلى زوجتي.. وقلّ مع الوقت ذهابي للمدرسة التي أعمل بها.. ومع تناقل قصة ولدي على كل الألسنة تعاطف زملائي معي وقدروا ظروفي فلم يتذمر أحد من غيابي المتكرر».

سكت الشيخ قليلًا وهو يتنهد مطرقًا رأسه قبل أن يرفعها ثانية ليلمح الثلاثة بدايات تكون العبرات في عينيه:

– «مرّ عام على هذه الحال؛ الأم الحزينة التي لا تكلم أحدًا، الأب الذي قلّ ذهابه لعمله وطالت لحيته، وكثر تردده على المسجد هنا. أما الأخ الأكبر فقد كان حاله عجيبًا كالعادة.. فبعد أن ظل منذ وفاة أخيه صامتًا لا يكلم أحدًا استيقظ ذات يوم فرحًا بشكل ملحوظ – وإن ظلّ على صمته – وأحضر الإزميل والشاكوش من جديد ليدق به على الحائط ثم يصمت قليلًا واضعًا أذنه على الحائط كأنما يتسمع ليعاود بعدها الدق

بحماس... وهكذا، حتى كادت أمه تجن، وبعد بضعة أيام من تلك الحالة العجيبة بدأ يرسم من جديد.. هذه المرة كانت رسوماته مختلفة، كان يرسمها في دفتر رسم وهو يضحك بشدة ولا ينام إلا والدفتر بين يديه».

سكت الشيخ ثانية ليمسح عبراته التي سالت على وجهه، ثم أخرج من درج مكتب بركن الحجرة دفتر رسم قديمًا وفتحه أمامهم.

كان الدفتر ممتلئًا برسومات لقلعة أخرى غير التي رأوها على الحوائط.. قلعة تحيط بها المياه من كل جانب هذه المرة ولها سور ضخم سميك، وبين السور والقلعة ينتشر العديد من الخيام ذات القباب المسننة كأطراف الرماح.

ومع تقليب الصفحات وجدوها لزوايا مختلفة للقلعة أو تفاصيل للطرق الداخلية.

– «بالطبع سألناه كثيرًا عن تلك القلعة الغامضة، لكنه كالعادة لم يجبنا، بل اكتفى بالإشارة بإصبعه للرسم الأخير الذي رسمه لأخيه ممتطيًا أسدًا، ثم يشير لتلك الرسومات في الدفتر ويضحك.

وكان هذا الدفتر هو آخر علاقة لولدي بالدنيا».

نظر الثلاثة للشيخ بذهول – وإن لم يعقبوا – وتركوه في استرساله الحزين فأكمل بصوت مختنق:

– «ثم لحقت به والدته بعدها بأيام».

من جديد سكت الشيخ مكفكفًا دمعه قبل أن يستطرد:

– «كان طبيعيًا إذن أن تسوّد الدنيا أمام عيني وقد فقدت كل من أحب.. شعرت أن هذا المكان الملعون لم يبلع ابني الصغير فقط بل كل عائلتي، لكن... رغم هذا الإحساس لم أقدر على ترك البيت، رغم الحزن الساكن في كل شبر من حوائط البيت لم أقدر على البحث عن غيره..

ظاهريًا كان عقلي يعجز عن معرفة السر في هذا، لكني من داخلي كنت أعرف...».

قطع الشيخ كلامه متفرسًا في وجوههم، بالذات وجه (الحديدي)، قبل أن يكمل:

– «كنت أعرف أني لا أقدر على ترك جوار النبي دانيال».

ثم رفع يده في وجه (الحديدي) طالبًا الصبر لما رأى عينيه تدوران في محجريهما سأمًا:

– «أعلم.. أعلم يا ولدي ما بخلدك.. ربما منعك كبر سني أو صعوبة الموقف أن تبوح بما في داخلك، لكن نفسك صرخت به.. يا ولدي هذه علاقة محبة لا دخل للعقل فيها.. إن لم تذقها فلا سبيل لدي لإقناعك بها..

على كل حال، كان طبيعيًا جدًا أن أرتمي في أحضان الضريح متوسلًا به إلى الله تعالى طالبًا رحمته.

الصدمة كانت فوق تحملي حتى إني خفت على نفسي من الكفر بقضاء الله، ومازلت أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي غلبني النوم فيه في قلب الضريح من كثرة البكاء ثم يد شيخ المسجد الحانية وهي توقظني...».

قطع استرسال الشيخ تمعر وجه (الحديدي) الذي لم يقدر على إخفائه أبدًا:

- «يا ولدي كل ما أقوله - وإن لم يعجبك - له علاقة بقصتكم.. لكن الصبر مطلوب».

أحس (بيدو) و(الشاعر) بالحرج من جفاء (الحديدي) بالذات عند ذكر الضريح والتوسل عنده، لكن الشيخ على ما يبدو أدرك ضيقهما فهوّن بهزة من رأسه ناحيتهما وقع ذلك الحرج.

كانت لفتة حانية شعرا بها، تبرد قلبيهما، وإن لم يلحظها (الحديدي)، ومع صوت الشيخ الصبور عاد الحديدي للاستماع مرغمًا:

- «مازلت أذكر كلمات الشيخ في أذني وكأنها تحدث الآن. أذكر أنه أخذني من يدي وأجلسني مسندًا ظهري للضريح وقال وهو يضع يده على قلبي كأنما يدلكه: (ما قطع علائقك إلا لأنه اختارك ياولدي).. كانت تلك أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام، لكنه دخل قلبي كأنما وجد مستقرًا فيه.. ما شعرت أبدًا بغرابة فيه، وإنما شعرته يغسل همي، كأنما كل حرف في تلك الجملة البسيطة يداوي جرحًا بداخلي.. ولم يقل الشيخ أكثر من هذا بل تركني في مكاني، فبت الليل بين يديّ الله حتى غلبني النوم، وليلتها شاهدت...»

كانت اللهفة في صوت (الشاعر) واضحة وهو يسأل الشيخ بسرعة:

- «شاهدت ماذا يا شيخ؟».

نظر الشيخ (للشاعر) بلوم وهو يهز رأسه:

- «شاهدت ما يخصني يا ولدي، ليس هذا ما يهمكم الآن، لكن ما عرفته بعد ذلك هو المهم.. هو ما يتعلق بوجودكم هنا - فيما أظن - مباشرة!».

❀ ❀ ❀

قام الشيخ من مجلسه وتوجه ناحية مكتبة ضخمة خلفه يكسوها الغبار وأحضر منها أنبوبًا ضخمًا مثل الذي يحمله طلبة كليات الفنون، وفتح غطاءه ليخرج منه فرخًا ملفوفًا من ورق مقوى ظاهر القدم الشديد:

- «هذا هو سند الطريقة.. وهذا هو أول ما أرانيه الشيخ!».

قالها وهو يفرد اللفة بحرص شديد..

❀ ❀ ❀

شهق (الشاعر) وهو ينظر للسند الذي أظهره لهم الشيخ:

- «ولكن... هذا السند غير منطقي بالمرة أيها الشيخ!».

ربما لولا شهقة (الشاعر) ما اهتم (بيدو) و(الحديدي) كثيرًا بالتدقيق في السند، ولكن حتى مع فضولهما لم يكتشفا شيئًا جديدًا، بل زاد الأمر غموضًا مع رد الشيخ وابتسامة غامضة تعلو وجهه:

- «غير منطقي بالفعل.. أليس كذلك؟!».

رفع (الحديدي) رأسه عن السند – الذي شد انتباهه لقدم المخطوط غير العادي – وهو يسأل (الشاعر) بفضول غلب عصبيته:

– «أي شيء هذا غير المنطقي يا (شاعر)؟».

بدا من لهجته بوضوح تعجبه من ملاحظة (الشاعر) شيئًا لم يلاحظه هو في تلك المخطوطة؛ كيف وهو المتخصص في المخطوطات والجامع لها!

أجابه الشاعر بلهجة لوم:

– «لأنك يا (حديدي) لم تهتم يومًا بالتصوف، بل تفرغت فقط للهجوم عليه لمخالفته معتقدك، لذا لم تنتبه لأمر واضح وضوح الشمس...

ولكن... يا (بيدو) ألم تلحظ شيئًا أنت أيضًا!».

هز (بيدو) رأسه نافيًا:

– «أنا أصلًا يا (شاعر) لا أفهم معنى السند حتى ألحظ فيه شيئًا غريبًا»

وأمام عيني (الحديدي) نافدتي الصبر شرح (الشاعر) لبيدو معنى السند:

– «في العلوم الشرعية يا (بيدو) يحرص المتلقي أن يأخذ سند شيخه في هذا العلم، من حفظ القرآن كاملا مثلا وقرأه على شيخه يطلب منه عند الانتهاء أن يعطيه سنده، فيجيبه الشيخ بأنه قرأ القرآن كاملًا على شيخه العالم الفلاني، ثم قرأ شيخه القرآن على شيخه العالم الفلاني، وهكذا في سند – ويسمونه سلسلة– يطول أو يقصر حتى الوصول للصحابة الذين قرءوا القرآن على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

يسمون هذا سندًا متصلا ؛ أي يصل صاحبه مباشرة بمن بدأ السند.. نفس الأمر في بقية العلوم الشرعية؛ من يقرأ مثلًا صحيح البخاري كاملًا على شيخه يحصل على سند يصل إلى الإمام البخاري رأسًا.. وهكذا في كل علم يوجد سند يوصل المتلقي إلى أول من تكلم فيه..

الطرق الصوفية كذلك لها سندها، أغلبها يمر من طريق الإمام عليّ كرم الله وجهه، أو أبي بكر الصديق، ومنهما للرسول صلى الله عليه وسلم...».

قاطع (الحديدي) كلام (الشاعر) والدهشة تطل من وجهه هو هذه المرة وقد انتبه إلى ما أثار (الشاعر):

– «و لكن... هذا السند ليس...».

– «بالضبط يا (حديدي).. هذا سند متصل إلى ما قبل حقبة الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير، إلى زمن النبي (إدريس) نفسه!! هذه أول مرة أسمع عن طريقة صوفية لها مثل هذا السند!!».

نظر (الحديدي) للسند قليلًا قبل أن يرفع عينيه للشيخ:

– «أتعرف يا شيخ.. هذا السند يساوي ثروة طائلة!».

من جديد أمسك (بيدو) (الشاعر) قبل أن يشتبك مع (الحديدي)!

❀ ❀ ❀

كان السند عبارة عن فرخ ورقي طويل ملفوف (مدعم برول خشبي) ولما فرده الشيخ وطلب من (الشاعر) أن يثبت طرفه بينما يمسك هو الطرف الآخر غطى المنضدة بأكملها..

يبدأ السند باسم الشيخ - الذي عرفوا ساعتها لأول مرة أن اسمه (سيد إبراهيم) - في الركن الأسفل للفرخ من ناحية اليمين، ثم سهم يشير إلى اليسار ناحية اسم شيخه، ثم سهم آخر إلى شيخ شيخه وهكذا حتى نهاية السطر، بعدها ينتقل السهم إلى السطر الأعلى من ناحية اليسار متوجهًا لليمين..

تتبع الثلاثة السند بفضول وانتبهوا أن كل سطر تقريبًا يحتوي على عشرة أسماء، وتلقائيًا انتقلوا بالسند حتى وصلوا إلى العهد النبوي.. لاحظ الشيخ انتقالهم هذا فابتسم وهو يقول:

- «ماذا تتوقعون يا ترى؟» .

تعجب (الشاعر) لما رأى السند يصل إلى أويس القرني ومنه إلى العصور السابقة للعهد النبوي، بعد هذا بدأت لغة السند تتغير وتتنوع، كان حتى أويس القرني عربيًا خالصًا وبعده تنوعت لغاته، ووجدوا فيه لغات لم يعرفوا لها وجودًا من قبل، غير أن بجانب كل اسم ترجمة عربية دقيقة سهلت لهم الفهم، وهكذا استمر السند في التنقل من قرن إلى آخر ومن بلد إلى آخر حتى وصل إلى ذي القرنين ومنه إلى الخضر، واستمر حتى وصل إلى اسم مكتوب بلغة شبيهة بالفرعونية مكتوب بجواره (نبي الله إدريس).

❀ ❀ ❀

(12)

صرخ من الرعب..

وصرخ (الداخلون) من الألم..

يصرخ هو رعبًا فيزداد الصراخ منهم ألمًا..

صوت واهن وسط الصراخ يصل لعقله، أو هو ينتزعه انتزاعًا منه:

- «أرجوك.. إنك تقتلنا»

❀ ❀ ❀

(13)

قال الشيخ (سيد):

– «مثلكم كانت دهشتـي، فأنا وإن لم أكن صوفيًا مـن قبل ولكني أتيت من بيئة صوفية فنبت بداخلي حـب التصوف وأهل البيت ولم تكن تلك أول مرة أسمع عن الأسانيـد رغم أني لم أكـن رأيت من قبل سنـدًا، لكن بكل تأكيد فكرة أن يعـود السند إلى هـذه الأزمنة الغابرة، وإلى هـذه الأسماء التاريخية المهيبة لهو أمر فاق تصوري بمراحـل.. ولما شرح لي الشيخ بدأت أدرك أن السند عجيب وغريب لغرابـة الطريقة نفسها.. هي ليست طريقـة صوفيـة عاديـة، بـل هـي – بالإضافـة لتهذيـب النفـس– طريقة........... (كيف أقولها لكم يا ترى!)... نستطيع أن نقول هي طريقة لحراسة المداخل!»

❀ ❀ ❀

بالنسبة (للشاعر) – ربما بسبب انتمائه الصوفي– كان التعبير فجًا جدًا، وغير مناسب لروحانية التصوف.. المداخل هي في النهاية رمز لأساليب خداع الشيطان للنفـس ومداخله لإغوائها، وليست مداخـل فعلية يتم غلقها وحراستها..

– «مداخل ماذا يا شيخ؟ مداخل الشيطان ليست مادية كي تحرسوها»

– «ومن الذي تكلم عـن مداخل الشيطان يا ولـدي؟ ألا يوجد في الدنيا غيرنا والملائكة والشياطين؟».

– «بالتأكيد يوجد، ولكن...».

«إذن فلتسمع مني أولًا يا ولدي».

❀ ❀ ❀

(14)

الآن يفهم..

من داخله يفهم..

من باطنه..

يشعر أن الفهم له وجود..

وله بداية ونهاية..

يعرج الفهم في جسده – ربما من وسطه – صعودًا لعقله فخروجًا منه إلى طبقات عليا فوق رأسه..

يدرك أكثر..

نعم..كل ما يحس به يتجسد أمام عينيه، وينفذ ما في باطن عقله!

تقبل هذا بسهولة لا يعرف مصدرها!

فهم أيضًا أن أولئك المعذبين أمامه لا يشكلون أي خطر عليه..

في نفس اللحظة توقف الصراخ وقال أحدهم:

– «شكرًا لك»!

❀ ❀ ❀

(15)

قام الشيخ ليصب المزيد من الشاي في محاولة لاسترداد أنفاسه مع كبر سنه، في حين مال (الحديدي) على أذن (الشاعر) يهمس فيها:

– «أرأيت.. لقد كنت محقًا لما أخبرتك كثيرًا من قبل أن التصوف ليس إسلامي الأصل!؟».

نظر (الشاعر) (للحديدي) بلوم غير مصدق! التفت الشيخ إليه وقد سمع همس (الحديدي) «الصاخب»:

– «ستقتلك شكوكك تلك يومًا.. ولكن أخبرني، أي شيء لا ترى الإسلام فيه بعد أن رأيت هذا السند؟ بل هو ينطق بالإسلام في كل سطوره حتى تلك الواصلة للنبي إدريس.. على كل حال (قالها وهو يوقف (الحديدي) عن الرد بيده) نحن لسنا هنا لنتجادل، وغالبًا لن يفيد الجدل أبدًا»

أعادت كلمات الشيخ (الحديدي) لانتباهه وسط نظرات اللوم من (الشاعر) و(بيدو)، وبادر (بيدو) الشيخ بصوت هادئ:

– «أنت لم تخبرنا بعد يا شيخ بعلاقة كل هذا بأمرنا!».

رد الشيخ:

- «نعم يا ولدي.. نكمل حكايتنا إذن».

كان الشيخ ينظر إلى كوب الشاي دون أن يمسه وهو يكمل شاردًا:

- «بعد أن رأيت هذا السند تغيرت الدنيا تمامًا؛ قال لي الشيخ إنه راقبني منذ جئت له بولدي.. نداءٌ بداخله أرشده لمراقبتي، ثم رؤيا رآها لي في شارع النبي دانيال، نفس الشارع الذي فقدت فيه ابني، ولما رأى ما حدث لولدي الصغير تأكد أني مقصود لخلافته في الطريقة.. كان طبيعيًا إذن أن يعرف أني سأبتلى في أهلي، فهذا شأن كل من تم اختياره لخدمة المكان.. نعم يا أولادي، كان فقداني لأهلي ثمن خدمة المقام.. هذا بالطبع ما يظهر للناس، أما في الباطن فقد عرفتم أن دورنا الرئيسي حراسة هذا المدخل.. بطبيعة الحال هناك الكثير من المعلومات التي لا أقدر على شرحها لكم الآن بوضوح، ولكن أقول لكم ما قاله شيخي يومها، وهو ما يهمكم الآن».

تأكد الشيخ من متابعتهم لكلامه -بخاصة (الحديدي) - قبل أن يكمل:

- «كل ألف عام يا أولادي يكون علينا تكثيف النظر والحذر، هكذا توارثنا في الطريقة، يترقب كل منا المداخل التي يحرسها، وهنا في الإسكندرية كنا نترقب أكثر من أي مكان آخر؛ فأخبار عديدة في الأثر عن شأن لها مختلف.. هناك وجود وحضور مخيف يغطيها لا نعرف له مكانًا معينًا، لذا لما حدث اختفاء ابني خمن الشيخ أن الألفية هذه المرة ستكون مختلفة.. ما يعرفه كل منا أن قبل تمام الألف عام بسنوات تبدأ مقدماتها في الظهور؛ ربما تزيد حالات المس في منطقة معينة، أو يكثر الخسف - مثل انهيارات المباني - بمنطقة أخرى، أو غيرها من العلامات.. وما

حدث مع ابني كان خسفًا قويًّا جدًّا ومحددًا جدًّا و...».

هنا قاطعه (الحديدي) بعصبية غير لائقة:

- «من فضلك.. قبل أن تكمل.. أخبرنا أولا عن هذا الذي تترقبونه كل ألف عام؟»

رد (بيدو) على (الحديدي):

- «ربما لا حاجة لنا يا حديدي لمعرفة ما يريد الشيخ قوله، فهو يقول بطريقة أو بأخرى ما سبق وأن قاله لنا (الشاعر)».

ثم أضاف وهو ينظر للشيخ:

- «أظن من حق الشيخ علينا أن يعرف قصتنا بالتفصيل».

❀ ❀ ❀

(16)

ينظر الآن أكثر لذلك الذي تقدمهم واقترب منه..

رمادي اللون..

الجلد يبدو سميكًا..

عيون سوداء واسعة تخاطب الغيب..

ضئيل البنية...

-«ما زالت طريقتكم في التصنيف بدائية جدًا!».

تردد ذلك الصوت الرمادي في داخله مالئًا خلايا مخه!!

أول مرة يشعر أن للصوت ألوانًا!

نظر إليه ومن داخله خرجت مشاعر الدهشة وتجسدت..

هذه المرة لاحظ بدء تكون الدهشة أمامه!!

لها ملمس ولها رائحة - مألوفة نوعًا ما - فأسرع ذاك الرمادي يقول:

-«من أجل هذا سيكون الحوار أفضل مع أحد بني جنسك.. هل تجيد الإنجليزية!».

❀ ❀ ❀

(17)

مضت ساعتان لم ينبس فيهما الشيخ ببنت شفة..

تكلم الثلاثة وأفاضوا..

ذكروا ما حدث..

ذكروا ما استنتجوا..

وأوضحوا كذلك حيرتهم فيما سيحدث وما يمكن أن يفعلوه! لبرهة - بعد صمتهم وانتهاء حديثهم- ظل الشيخ صامتًا.. نظر إليهم بعمق، وربما ببعض الأسى ثم قال:

- «أنتم متأكدون من كل ما قلتموه؟ صديقكم هذا كان عند الملاحات في منتصف الليل مع بداية يوم 11-11-2011؟».

نظر إليهم على أمل التكذيب لكن الصدق أطل من أعينهم مع لمحات الخوف الواضحة فتنفس بعمق الذي أسقط في يده وأكمل:

- «لو صح هذا فالمشكلة أكبر مما نتخيل............

هل سمع أحدكم من قبل عن السيكتوريوم؟؟».

❀ ❀ ❀

(18)

سأل (بيدو) الشيخ متعجبًا:

– «ما هـذا اللفـظ الغريـب يا شيـخ؟؟ لا يـبدو عربيًّا بأي حـال من الأحوال».

قال (الحديدي) على الفور:

– «بالطبع ليس عربيًّا يا (بيدو)، وإن كنت أعجب أن الشيخ يعرفه؛ هو لفظ أجنبـي تمامًا – لم تكن دراستي للمخطوطات بـلا طائل على أية حال! هذا لفظ لاتيني إن لم يخني فهمي، فقط هو محرف قليلًا، وهو أمر اعتدته أثناء دراستي للمخطوطـات خاصة في اللغات غيـر المستخدمة، غالبًا هو يعني (الوسيط) أو (المفتاح).. أليس كذلك أيها الشيخ؟ !».

أومأ الشيخ برأسه موافقًا:

– «لا عجب من معرفتي للغات قديمة يا حديدي لو أنك ركزت في أمر السند جيدًا، ولكن... قبل أن أتكلم عن السيكتوريوم أحتاج أن أربط لكم بعض النقاط».

نظر إليهـم لحظة شعروا فيهـا أنه يزن بعض الأمور فـي عقله ويحسم أمرًا ما ثم أكمل:

– «كلامكم عن نقاط طاقة كما فهمت مـن شرحكم سواء المتعلقة بك يا (شاعر) أو خرائطك يا (حديدي) أو تحليل المياه لديك يا (بيدو) هو نفس ما تكلمت فيه معكـم عن (المداخل) أو لو شئنا لأسميناهـا (الثغور)! إن عالمنا ليس هو ما نراه ولا حتى الذي تراه أجهزتنا المجهرية.. لاحظوا قول الله تعالى (و كذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض).. هناك ملـك، وهناك ملكـوت.. هنـاك عالـم ظاهـر، وآخـر باطن، لاحظوا كذلك لفظي (السمـوات والأرض)، فهنـاك إذن ظاهر وباطن فـي عالم السماء وظاهـر وباطن في عالـم الأرض، لكنها ليسـت عوالم منفصلـة بل هي متداخلة.. دعونـي أقرب لكم الصورة أكثر؛ هـذا الجسد الظاهر لنا تحت سطحه عالم يمـوج بالحياة، وهناك عقـل يموج بالأفـكار، وهناك روح تسافر فـي العوالم والأزمنـة.. كل هذا داخل جسـد واحد.. هل كل جزء يعمل وحده أم هي وحدة متصلة؟»

و لما لم يجد منهم ردا سألهم بوضوح:

– «هل وصل لكم مرادي؟؟؟».

رد (الحديدي) بعصبية:

– «أكمل من فضلك يا شيخ للنهاية قبل أن تسأل عن ردنا».

نظر إليه الشيخ بتعاطف، ثم أكمل:

– «ما أريد قوله– كمـا أوضحت سابقا – إننا لا نعيشـ وحدنا، القضية ليست جنا وشياطين فقط، بـل (ويخلق ما لا تعلمـون)، ونحن حتما نعلم الجن والشياطين، ونعلم الملائكة أيضًا.. البعض شاهد وحدَّث بما شاهد،

والبعض فقد عقله لما شاهد.. لكن ما أحدثكم عنـه هنا أمر مختلف، أنا لا أتكلم عـن مشاهدات روحانيـة برزخية بـل أمر آخـر وإن تشابها... سؤال.. هـل ظن أحدكـم أن دور العبادة تلـك التي هنا؛ مسجد وكنيسة ومعبد تصادف فقط بناؤها في مكان واحد؟».

رد (الحديدي) وهو يوجه نظرات لوم لرفيقيه:

– «نفس ما كنت أسأله لهما».

ابتسم الشيخ (للحديدي) وهو يهز رأسه مؤيدًا:

– «حتمًا تعرفون أن الحضارات القديمة سبقتنا في كثير من المعارف؛ آثارهم تشهد بهـذا، وما تقدمنا إلا وهـمٌ نعيشه.. ليس التأخـر في الزمان دليـل التقدم علـى كل حال.. الآثار أيضًا تـدل على معرفتهـم التامة بتلك النقاط التي تكلمتم عنها، أو الثغور كمـا سأطلق عليها من الآن فصاعدا.. الأهرامات ليست مبنية عبثا فـي تلك النقطة.. معابد المايـا العشرات من الآثـار القديمة والمبانـي الحديثـة أيضًا.. هنـاك علم مستمر منـذ الأزل ويتـوارث سرا.. في واقع الأمر هنـاك صراع خفي على تلـك النقاط.. صراع لا يحس بـه المشغولون بحياتهم اليومية، وهـذا مقصود.. ما أريد أن أقوله لكم هو – كما هناك تسارع من البعض على الوصول لتلك النقاط فهناك أيضًا تسارع من (أهل الله) لذلك!

هل ظننتم أن المعركة فيها طرف واحد!

هل ظننتم أن تلك الأضرحة والمقامات بنيت في تلك الأماكن عبثا!

لا يوجد مسجد منها إلا وهـو على نقطة من تلك النقـاط، على ثغر من تلك الثغور!»

رشف الشيخ رشفة مـن الشاي تاركا لهم مساحة مـن الوقت يهضمون فيه كلامه ثم أكمل:

– «كان الأمر مخفيا – عمدا– حتى تكلم فيه أحد الباحثين[9] واقترب من الحقيقة جدًا لكنـه لم يصل وقتها للمغزى الحقيقي لمـا رآه.. كان في طنطا وانتبـه أن مساجد الأوليـاء هناك لها تشكيـل جغرافي مميـز، ولما وضع خريطـة طنطا أمامـه اكتشـف أن التشكيـل أقـرب لهيـكل حكومي؛ ملك ووزراء! لكنه لم ينتبه أنه أقرب إلى تشكيل حربي؛ قائد وجنوده!

القائد... السيد البدوي، حوله قادته المباشرون، ثم في أنحاء المدينة باقي جنوده!»

تبادل (بيدو) و(الشاعر) الابتسام من طـرف خفي لما رأوا (الحديدي) يكاد ينفجر غيظا مما يسمـع وعيناه تدوران في محجريهمـا في حين أكمل الشيخ كأنه لم يلحظ (الحديدي):

–«الحقيقة التي وصل إليها أهل الله أن الصـراع لم يتوقف يوما، فقط انتقل مـن الصراع الظاهر إلـى الصراع الباطن، وكان لهـم دورهم كما للآخريـن كذلك.. هـي ليسـت معركـة أولياءفقـط – وإن كان دورهـم الرئيسي – لكنها معركة بقاء لنا كلنا»

(9) كتاب الحكومة الباطنية، للدكتور حسن محمد الشرقاوي.

سكت قليلا ثم سأل وهو ينظر إلى الجميع:

– «هل سمع أحدكم عن عالم المثال؟».

تدخل (بيدو) – الذي ظل صامتا طيلة الوقت– في الكلام:

– «من فضلك أيها الشيخ الكريم.. أنت سألتنا من قبل عن السيكتوريوم، أو ذلك الوسيط كما قال (الحديدي) ولم توضحه لنا.. الآن لا تسألنا عن شيء آخر قبل أن توضح لنا المقصود من الأول».

– «معك حق يا ولدي.. غير أن هذا من ذاك.. عمومًا لعلي قد أطلت عليكم..

السيكتوريوم..

أو الوسيط..

أو..............

القطب!!

أو..............

الدجال!!

هل وصل إليكم كلامي الآن؟»

❀ ❀ ❀

(19)

– «أهلا بك يا صديقي!»

نظر (سكر) في دهشة للمتكلم الذي ظهر فجأة أمامه مخترقا حائط الحجرة..

كان يتكلم بإنجليزية مشوبة بلكنة اسكندنافية لم يخطئها! عجوز كما بيدو، إلا أن جسده يحتفظ بصحته.. أشقر الشعر، أزرق العينين، أحمر الخدين..

أضاف الرجل وهو يشير للمخلوقات الرمادية التي تكومت تعبا وإرهاقا بأجسادها الضئيلة في طرف الحجرة:

– «و كنت أود لو تعارفنا بشكل أفضل من هذا!!».

ثم أشار (لسكر) بالجلوس على مصطبة حجرية في ركن الغرفة– لم ينتبه لها من قبل– وهو يقول:

– «دعني أعرفك بنفسي».

❀ ❀ ❀

(20)

– «مـاذا تقـول أيهـا الشيـخ.....؟ هـذا لا يجـوز أبـدًا... ».

ضحك (الحديدي) من رد فعل (الشاعر):

– «ماذا بك يا (شاعر).. صراحة كلام الشيخ بدأ يعجبني الآن!».

– «من جديد تدخل (بيدو) وهو يكافح لكبت ابتسامة تجرح صديق العمر:

– «مهلا يـا (شاعر) وأنـت يـا (حديدي)... لعـل الشيخ يقصـد أمرا آخرا.... أليس كذلك يا شيخ؟».

ابتسم الشيخ وهو ينظر بلوم إلى (الشاعر):

– «أنا سألتكم هل وصل كلامي أم لا.. واضح جدًّا أنه لم يصل، وكان يكفيكمـا –قالهـا وهـو يشيـر (للحديـدي) و(الشاعـر) – أن تسـألا» ثم تنهد بعمق وكأنما يزيح عن صدره ثقلا ضاغطا مكملًا:

– «لست أقصد هنـا الدجال بمعنـى المسيخ، ولكـن الدجاجلة على مر الزمان كانوا كثر.. في الحقيقة.....................».

قاطعه (الشاعر) ثانية بصبر نافد:

– «حتى لـو.. حتى لو أيها الشيـخ، لا يليق أبـدًا أن تجمع بين القطب وبيـن أي دجـال مهمـا كان.. أوليـاء اللـه ليسـوا دجاجلـة» تنهد الشيخ بإرهاق:

– «يـا ولـدي كـف عـن هذا.. الأمـر أخطـر بكثيـر مـن فهمك القاصر... يا ولدي هذا تاريـخ وقد حدث، والأمر سيتضـح لك أكثر إن أنصتَّ دون مقاطعة.. فقط أعطنـي تلك الفرصة – ثـم التفت (للحديدي) موجهًـا له الحديـث– أنت مهتـم بالمخطوطات كمـا تقول أليـس كذلك؟»

أوما الحديـدي برأسه فأكمل الشيخ وهو يقف ويتجـه إلى صندوق قديم في ركن الحجرة ويفتحه:

– «إذن ستحب هـذه الخريطة كما أحببت السنـد.. ربما تجدونها كلكم مثيرة».

التفوا كلهم حـول ذات المنضدة في وسط الحجـرة وهو يفرد مخطوطا أصفر مهترئ الأطراف بحرص شديد مكملًا:

– «نحن نتوارث هذه الخريطة كما نتـوارث السند، وفي الحقيقة نعتبر حراسا للخريطة أكثر من الثغور! لكن المهم أني عرفت أول مرة رأيتها ما حدث لابني... و أدركت أيضًا ما هو أخطر بكثير».

كان يتكلم وهو يفسح المجال لهم للرؤية......

علت الدهشـة وجوههـم وهم ينظـرون إلى ذلـك الرسم العجيب في المخطـوط..

طبقات فوق طبقات...

كأنها صور مقطعية لمناطق متعددة من الأرض!

الطبقة العليا رأوها متصلة بفتحة ما– معبر عنها بدائرة داكنة – إلى طبقة أخرى تحتها وهكذا طبقة تحت طبقة حتى عدُّوا أربع طبقات كاملة!

وضع الشيخ إصبعه على تلك النقطة بالطبقة العليا وهو يسأل:

- «هل يخمن أحدكم أين تقع تلك النقطة؟».

تبادلوا النظر وقبل أن يجيبوا فرد الشيخ جزءا آخر من الخريطة كان ملفوفا فظهر تخطيط أشبه بذلك الذي رأوه غير أن النقطة التي في الطبقة العليا لم تكن داكنة السواد:

- «وهل تعرفون أين تلك النقطة الأخرى ولماذا لونها باهت؟»

رد (الحديدي):

- «لا حاجة للتخمين الكثير.. تلك الداكنة تشير إلى موقعنا الحالي والأخرى تشير لمنطقة في أطراف الإسكندرية.. حديثنا الحالي والسابق لا يقود تفكيري إلا للملاحات.. أليس كذلك؟؟؟؟»

أومأ الشيخ برأسه فأكمل (الحديدي):

- «و لكن ما السر في سواد تلك النقطة الداكن واختلاف هذا في النقطة الأخرى!».

-«نعم يا ولدي.. هذا هو السؤال.. وإجابته ستحدد لكم الكثير.. لكن إجابتك تحتاج فقط لتدقيق أكثر.. النقطة الداكنة لا تشير فقط إلى موقعنا، ولكنها تشير بالتحديد إلى ضريح النبي دانيال، أو أيا من كان يسكن الضريح.. أما تلك الأخرى فنقطة مرور صاحبكم، وليس بُهْتُ لونها إلا لصعوبة المرور الشديدة منها، في الواقع لا يمكن المرور منها أبدًا إلا في ظروف خاصة جدًا وهذا ما حدث كما فهمت من حكايتكم».

سأل (الشاعر) وأعصابه مازالت تتقد:

- «كل هذا جميل، ولكن ما علاقة هذا بالقطب والدجاجلة؟؟» «أعتقد أن الدور عليّ هذه المرة في التخمين!».

كان هذا صوت (بيدو)المتردد!

التفت (الشاعر) متعجبا (لبيدو) فأكمل الأخير مسرعًا:

-«اختلاف الذرات يا (شاعر)، أستنتج - وليصحح لي الشيخ - مادامت ذرات المياه حدث فيها هذا التغير - ويمكن أن نسميه تطورًا- من أثر بوابة لم تكن قد فتحت بعد، فما بالك بالأثر على الشخص المتواجد بالصدفة في ذات النقطة في وقت محدد لا يتكرر إلا نادرًا جدًّا وقت فتح هذه البوابة!

هل حدث تطور في خلاياه كما تطورت خلايا المياه؟ نعم هو خيال واسع - لست من أنصاره كما تعلم عني يا صاحبي - ولكن لو أضفت إليه ما كلمتنا عنه كثيرا من قبل عن قدرات الطاقة في جسد الإنسان فأستطيع أن أتخيل أن الناس فجأة يجدون بينهم رجلًا خارق القوة له أفعال أقرب إلى السحر، مثل معلمي الطاقة الصينيين الذين كلمتنا عنهم كثيرا من قبل»

صدر عن الحديدي صوت يدل على استخفافه - ربما بذكريات المرات التي تكلم فيها (الشاعر) معه عن قدرات معلمي الطاقة هؤلاء - لكن (بيدو) لم يمهل (الشاعر) فرصة التلفت (للحديدي) فاستطرد سريعًا:

«هنا يدخل الموروث الشعبي في فهم القضية.. القوة الخارقة لا تعني إلا دجالًا أو وليًّا في أذهان البسطاء، ولا يأتي في أذهانهم البسيطة أبدًا كلامك عن الطاقة يا (شاعر)، أليس كذلك يا شيخ؟».

- «بلى... و نعم!».

كذا أجابه الشيخ بعد أن نظر مليا في وجوههم متبسمًا وهو يداعب لحيته الخفيفة لا إراديًا، ثم أكمل:

- «(بلى) أنه يظهر امرؤ خارق للعادة فجأة وسط الناس، و(نعم) أن الأمر يتعلق بالموروث الشعبي في تفسيره.. يا ولدي القوة الخارقة هذه تحتاج لنفس مهذبة تلجمها، وهنا المحك، من قدر على تربية نفسه مع وجود هذه القوة الخارقة يراه الناس وليًا، ومن يجري خلف شهوات نفسه مع وجود هذه القوة الخارقة يراه الناس شيطانًا رجيمًا. .القطب الحقيقي لا يحتاج لقدرات أو كرامات ولكني هنا أتكلم عما يظنه الناس حين يرون قدرات خارقة».

سأله (الشاعر) بتردد:

- «إذن أنت تقصد أن صاحبنا.......».

قاطعه الشيخ:

- «بالضبط هو ما فهمت. .صاحبكم الآن له هذه القوة الخارقة، لهذا نظل نرقب وننتظر عسى أن نلحق من يختاره قدره لهذا الابتلاء فنساعده في تهذيب نفسه، لكن صديقكم هذا كان طريقه مختلفا، القدر اختار له الغوص في أعماق لم ننتظرها، نعم نحذّر منها، ونعم سمعنا عنها، لكن كل نصيبنا كان مجرد السماع والتحذير، مئات الأجيال والتحذير من السيكتوريوم لا ينتهي، التركيز كان على محاولة استيعابه ما أن يظهر، ولم يتخيل أحد أن يعبر تلك الثغرة، كان الفكر كله احتمال وجوده

صدفة، وليس التعرض للبوابة أو الثغرة وأداة سحرية معه ونية بداخله تشتاق للقوى الخارقة!

صاحبكم الآن صار محط أنظار العديد ممن لا تتخيلون حتى وجودهم بسبب قوته تلك، وسيحاولون جهدهم السيطرة عليه..

ألم تقولوا إنكم وجدتم تجمعا للسحرة عند الملاحات!

إنه موسم الصيد بالنسبة لهم ولكنه موسم لا يتكرر إلا مرة كل ألف عام!

أقول لكم: أنجدوا صاحبكم وإلا......

- ثم سكت قليلًا وهو مغمض العينين- ربنا يستر».

سأل (الحديدي) متعجلًا:

-«لكن كيف ننجده؟ نحن لن نترك صديقنا أبدا في هذا الموقف. .أليس كذلك؟».

رد الشيخ:

-«أما الدخول إلى حيث ذهب فأعتقد عندي الطريقة لذلك، ولكن... لابد أن تعوا جميعا ما معنى أن تذهبوا إلى تلك المنطقة من كون الله. .من جديد أسألكم هل تعرفون عالم المثال؟».

رد (الشاعر):

- «بالطبع أيها الشيخ... و أعتقد أني قرأت عن هذا العالم في أحد كتب الإمام السيوطي».

❀ ❀ ❀

يقول الإمام السيوطي في فتاويه نقلًا عن الإمـام علاء الدين القونوي: «وقد أثبت الصوفية عالمـا متوسطا بين عالـم الأجسـاد وعالـم الأرواح سموه عالم المثال، وقالوا: هو ألطف مـن عالم الأجساد وأكثف من عالـم الأرواح، وبنوا على ذلك تجسـد الأرواح وظهورهـا في صور مختلفـة من عالـم المثال، وقد يستأنـس لذلك بقوله تعالــى: (فتمثل لها بشـرًا سويًا)، فتكون الـروح الواحدة كروح جبريـل مثلا في وقـت واحد مدبـرة لشبحـه الأصلـي ولهـذا الشبح[10] المثالي، وينحل بهذا ما قـد اشتهر نقله عن بعض الأئمة أنـه سأل بعض الأكابر عن جسم جبريل عليه السلام، فقال: أين كان يذهب جسمه الأول الذي سد الأفق بأجنحته لما تراءى للنبي ﷺ في صورته الأصلية عند إتيانه إليه في صورة دحية الصحابي؟ وقد تكلف بعضهم الجواب عنه بأنه يجوز أن يقال: كان يندمج بعضه في بعض إلى أن يصغر حجمه، فيصير بقدر صـورة دحية، ثم يعود ينبسط إلى أن يصير كهيئتـه الأولى، وما ذكـره الصوفيـة أحسن، وهـو أن يكون جسمه الأول بحاله لم يتغير، وقد أقام الله له شبحا آخر، وروحه تتصرف فيهما جميعا في وقت واحد، وكذلك الأنبياء، ولا بعد في ذلك؛ لأنه إذا جاز إحياء الموتى لهم وقلب العصا ثعبانا وأن يقدرهم الله على خلاف المعتاد فـي قطع المسافة البعيدة كما بين السماء والأرض في لحظة واحدة إلى غير ذلك من الخوارق، فلا يمتنع أن يخصهم بالتصرف في بدنين وأكثر من ذلك، وعلى هذا الأصل تخرج مسائل كثيـرة وتنحل بـه إشكالات غير يسيـرة، كقولهـم: جنـة عرضهـا السماوات والأرض، وهي فوق السماوات والأرض وسقفها عرش الرحمن، كيف أريها النبي ﷺ في عرض الحائط حتى تقدم إليها في صلاته ليقتطف منها عنقودا على ما ورد بـه الحديث؟ وجوابه أنـه بطريق التمثل، وكما يحكى عـن قضيب البان الموصلي، وكان من الأبدال، أنه اتهمه بعض من لـم يره يصلي بترك الصلاة

(10) المقصود بالشبح هنا هو الجسد المادي.

وشدد النكير عليه في ذلك، فتمثل له على الفور في صور مختلفة، وقال: في أي هذه الصور رأيتني ما أصلي؟! ولهم حكايـات كثيرة مبنية على هذه القاعدة وهي من أمهات القواعد عندهم، والله أعلم . هذا كله كلام القونوي بحروفه .

❀ ❀ ❀

(21)

المكان: بلغاريا

العام: 1945

المكان بالتحديد: خط السكة الحديد الرئيسي لقوات حلف الأطلنطي.

سار القطار ببطء شديد يشي بخوف سائقه رغم الأوامر المعطاة إليه بالسير الطبيعي، و رغم أن السائق أحد أبطال الحرب فإن خبراته الحربية لم تتعرض أبدا لتولي مهام انتحارية كتلك التي أقحم نفسه فيها..

غالب الظن أنه قد ودع فرص رجوعه لعائلته في بلدته الهادئة، سان كليمنتي التي أسسها الإسبان في كاليفورنيا..

تذكر الشمس المشرقة على المحيط مع اندلاع النار المفاجئ بعربات القطار كلها بلا أدنى صوت!

شاهد معدن القطار يسيح ومعه شاهد ما بقي من ثوان ودقائق بعمره تسيح!

❀ ❀ ❀

هناك على البعد، خلف تلك الهضبة المطلة على خط القطار كان الجنرال (جيمس فورست) يقف داخل برج مراقبة يتابع القطار بمنظار مكبر..

تبسم لمرأى القطار المحترق ثم صرخ في اللاسلكي:

- «الآن.. الآن.. اجعلوها مشرقة».

فتوجهت لأوامره كشافات إنارة عملاقة إلى السماء الحالكة فاضحة سرها!

❀ ❀ ❀

(22)

انتهى (الشاعر) من كلامه على صياح (الحديدي) الغاضب:

– **«عدنا من جديد لهذا الهراء!»**.

و لكن الشيخ تكلم ثانية وكأن (الحديدي) لم يقل شيئا :

– «نعم يا ولدي.. هذا ما نعرفه عن عالـم المثال، ولكن أنا فقط أقرب لكم حقيقة ما هناك بمصطلح يمكنكم استيعابه.. إن صاحبكم لم يذهب لعالم المثـال– عالم الأولياء– ولكـن الصورة قريبة جـدًا، صاحبكم ذهب لعالم ليس للبشر أن يعيشوا فيه، لا لشيء إلا لأن قوانينه قاسية جدًا..

أقطع لكم الحيرة وأقول إن هذا عالم ليـس لنا نحن بني البشر أن نعيش فيه إلا بشروط تكاد تقتـرب من الاستحالة؛ أن تقتـل نفسك قتلًا، لا يكون فيها مجال لأي سوء، فهناك تتمثل مشاعرك فعـلا، ولا يعود بإمكانك أن تدفن في صدرك ما تخفيه.. يزيد الأمر مـع حالة صاحبكم في قدرته على التصرف في طبائع الأشياء..

أقول لكم؛ إن صاحبكـم صار سلاحا قاتلا، يكفيه فقـط أن يفكر في أي شر وستنفذ أحاسيسه على الفور.. لو فكر في القتل قتل.. لو فكر في الإيذاء آذى.. لأجل هذا أقول لكم: هو بحاجة للنجدة... هو بحاجة لنجدتكم من نفسه الأمارة، إذا قتل صاحبكم بمجـرد الفكرة فسيدمره هذا، ولو تدمرت نفسه يفوت وقت النجاة تماما».

عـم الصمت المكان بعـد انتهاء الشيـخ حتى قطعه (الحديـدي) بصوت خفيض:

–«مع احترامي أيها الشيخ ولكني غير مقتنع!».

تدخل (الشاعر) سريعا في الحوار:

– «ولكن يا (حديدي).. نحن نعيش هـذا العالم كل يوم، أو على الأقل نختبر أثره كل يوم!».

ثم أكمل لما رأى النظرات تستحثه:

– «ألا تـرى حين ننام كيـف نكون فـي عالـم الأحلام.. نطير ونقفز ونذهب في الأماكن والأزمنة ونرى الماضي والمستقبل».

ثم سكت قليلا ليجمع أفكاره قبل أن يكمل:

– «منذ فترة تدربت علـى أسلوب يسمونه (الأحـلام الواضحة)[11].. أسلوب مبدؤه من سؤال: وأنت في أحلامك هل تعرف أنك تحلم!

فماذا إذا عرفت؟؟ هل تقدر أن تتحكم في حلمك؟

إذا عرفت أنك تحلم وأنت في وسط الحلم فحقيقة الأمر لا حدود لما يمكن أن تفعله وأنت تعلم أنك في عالم لا تحكمه قوانين عالمنا الواقعي..

هذا ما تدربنا عليه، حتـى أدركت أن هذا الأسلـوب ليس الغرض منه فقط التمتع بالحلم، و لكـن وراءه ما وراءه من اختراق لعوالم لا نحب أن نفتح بابها.. أذكر ما حذر منه المعلمون لهذا التدريب ألا تفكر في شر أبدا وأنت في حالة الحلم تلك وإلا تجسد!

(11) Lucid dreaming.

طبعًا هم بهـذا برمجوا عقلـك على التفكيـر في الشر.. هـل تخاف من الأشبـاح، من الجـن، مـن العفاريـت..... إلـخ.. عظيم هـي تحت أمرك... فقط فكـر فيها.. هل تذكـرون مثل (اللي يخاف مـن العفريت يطلع له)؟ في هذا العالم يكفيك فقط أن تفكـر فيه.. أنا بدأت هذه التمرينات وأنهيتها فـورًا لحسن الحظ قبـل أن يستطير شرها! ومـمـا عرفته أن أحدا قابل بعض المخلوقات وهو في هذا العالم... مخلوقات لم يتبين هيئتها بدقة ودعته للمكث معها[12]!!!

نفس هـذا الأمر مع تدريبـات (الخروج مـن الجسـد)[13] حيث يخرج وعيك من عالمـك ويطوف فـي العالـم الأثيري، وهـذا أيضًـا جربته ثم اكتشفت أنها تدريبـات شيطانية فوعيك المستقل عـن الجسد لا حدود له ولا حوائط.. أنت تختـرق حرمات البيـوت بمنتهى السهولة وتـرى عوراتها بمجرد توجهك لها، ولما عرفت أن هذه التجـارب تمارسها قبائل الشامان في طقوسها السحرية أيقنـت أن هذه المعلومات لم يتـم إخراجها عبثا، بل لغرض نشر السحـر بلغة عصرية يسقط فيه محبو كل جديد..

ما أفهمه الآن من كلام الشيخ هو مثل ما مررت به..

و الآن أفهـم سر إصرار الشيخ فـي سؤالنا عن عالـم المثال.. السؤال الذي يريد أن يسأله: هل نحن فعلا علـى استعداد لخوض عالم سنواجه فيه شرور أنفسنا بمعنى الكلمة.. أليس هذا صحيحا يا شيخ؟»

---

(12) قصة مروية فعلا من أحد ممارسي الأحلام الواقعية.

(13) Out of Body Experience.

أومأ الشيخ برأسه موافقا وهو يقول بصوت متعب:

- «صحيـح إلى حـد ما يـا ولدي.. مـن جديد أقـول إني فقـط أقرب الصورة.. العالم الـذي ذهب إليه صاحبكـم ليس عالم المثـال كما قلت، وليس عالم البـرزخ، ولكنه عالم بالفعل موجـود وملموس.. عالم عرف الأولياء وجوده بانطلاق أرواحهم في الأكـوان، وعرفوا أن دورهم في كبته عظيم ولذا لم يبن مقام إلا على رأس ثغر من هذه الثغور.. مقام يمنع الدخول أو مقام يمنع الخروج منها..

هم بهـذا كحراس الأبواب، وكثـرة الذكر من حولهـم تشكل حاجزا - ربما لا ترونـه أنتم ولكن غيركم يـراه - ضد أي محاولـة تسرب من هذا العالم إلى عالمكم..

بالطبع لم يفلـح الأمر في كل الأوقات.. في أوقـات كثيرة هدمت تلك الأضرحة لا لشـيء إلا لخدمة أغراض العالم الآخـر هذا، ومن مكان هذا الهدم كان يخرج ليلا ونهارا ما اللـه به عليم.. هناك أيضًا ثغرات لم يكن من الممكن بنـاء المقامـات والأضرحة فوقهـا، مثل تلك التـي ذهب منها صاحبكم..

الآن أضع الحقيقة أمام أعينكم صريحة؛ صاحبكم أسير هذا العالم..

صاحبكـم الآن صـار مطمعـا للكثيـر (ممن لا تـودون معرفـة حتى وجودهم) ليس بسبب قدراتـه الخارقة ولكن..... ولكـن لأنه صار هو مفتاح فتح تلك الثغرات.. هذا هو معنى السيكتوريوم..

هذا الخليـط من الصدف الـذي تجمع له فـي لحظة واحـدة مع روحه الشفافة التي كلمتموني عنها في سردكـم جعل بداخله الشفرة المطلوبة لفتح

تلك الثغرات بالضبط كما فعل مع ثغرة الملاحات. . . . هل أدركتم الكارثة التي أتكلم عنها؟!»

أومأ الثلاثة برءوسهم، وظلوا لدقائق صامتين قبل أن يكسر بيدو الصمت بصوت خافت:

-«و لكن أيها الشيخ أين هذا العالم الذي تتكلم عنه، يبدو كأنه موجود منذ الأزل!»

أشار الشيخ بإصبعه إلى الأرض وهو يقول:

«هناك أسفل منا. . تحت الأرض!!».

❀ ❀ ❀

(23)

(واشنطون. . العام 1948).

يزداد كابتن (ريتشارد بارد) قناعة يوما بعد يوم أنه أحسن اختيار زوجته الاسكتلندية حمراء الخدين - كما كان يسميها - أو الفلاحة الاسكتلندية - كما وصفها رفاقه. . (ماري ماكنتاير) ربة المنزل في زمن لا وجود للمنازل أو للربات فيه!

يحب هو هذا الشعور الذي تحارب حضارتهم الزائفة للتخلص منه؛ الرجل المسيطر. . يرجع إلى بيته فتسارع الزوجة لاستقباله بالباب، تخلع له معطفه وتعد له حمامه الدافئ، ثم تحضر الأطفال بمنتهى الهدوء للوقوف صفا أمامه يخبرونه عن يومهم بصوت هادئ. .

ليصفوها كما يشاءون. . هي حولت بيته مكانا لراحته يتناسب تمام التناسب مع انضباطه الشخصي والعملي. . هذا الانضباط الذي يستفيد منه في مثل هذه المواقف. .

زيارة منزلية ليلية بعد منتصف الليل. . الرجال المتخشبون - كما يحب تسميتهم -و مظروف بني سميك يوضع بين يديه مع تعليمات صارمة بعدم فتحه إلا بعد الوصول مع مرافقه إلى مبنى العمليات. .

يعرف هـو إجـراءات السريـة القصوى تلـك، وكذا فلاحتـه الأثيرة تعرفهـا، وقبل حتى أن تنتهـي مقابلتـه القصيرة مع «الرجـل المتخشب» كانت حقيبته عند باب البيت في انتظاره وأطفاله واقفون لوداعه..

عانقته (ماري) بحرص أمام هذا المتخشب ثم همست في أذنه:

– «لا تقلق.. سنكون بخير.. اذهب أنت وأبهرهم».

«زوجة مثالية» هكـذا أسرّ في نفسه وهـو يريح رأسه إلـى الخلف في السيارة ليحظى بلحظات من الراحة قبل أن يندم على فواتها!

خبرته تقـول إن القادم غير هيـن بالمرة، والعنـوان على المظروف المكتنز يؤيده..

(المشروع الأحمر)[14]!

بكل تأكيد لم يكن يعرف أن هذه آخر مرة يرى فيها فلاحته الأثيرة!

❀ ❀ ❀

---

(14) Project red.

(24)

كتم (بيدو)تعجبه وهو يقول:

– «يا شيخ.. أنت تعلـم والكل يعلم أن تحت الأرض صخورًا وأتربة ومعادن منصهـرة، هذه معلومات أولية..من فضلـك دعنا لا نركن العلم جانبا وكأننا في العصور الوسطى».

قطع (الحديدي) كلام صديقه:

«بل كلامه له منطق يا (بيدو) وإلا فأين يعيش يأجوج ومأجوج!»

نظر (بيـدو) و(الشاعر) لـه بدهشـة، (فالحديدي) آخر مـن يدافع عن نظريات خيالية كتلك!

قال (الحديدي) بطريقته السريعة الكاسحة:

«منذ سنوات لفت نظـري تعبيرقرآنـي دقيق في ســورة الكهف؛ كلمة (ردم) التي وردت في سورة الكهف[15]..

فالردم لا يكـون إلا لثغرة في الأرض، حفرة علـى سبيل المثال . أما السد فحائـل بين مكانين.. النـاس انتبهت لكلمة السد ونسيـت كلمة الردم

---

(15) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ســورة الكهف الآية 95.

ويبدو لي أن ما فعلـه ذو القرنين هو مزيج من الاثنيـن؛ ردم ثغرة ثم بناء سد بين الجبلين . . واضح أن الوادي بين الجبلين كان محل هذه الثغرة التي يخرج منها يأجوج ومأجوج . .

الآن السؤال: لو أن ما تحت الأرض فقـط تراب وصخور فأين يعيش يأجوج ومأجوج، وأين يتناسلون حتى يأتي موعد خروجهم!

بل لاحظوا تسميتهم المشتقة من التأجج المرتبط بالنيران، هل يعني هذا أنهم يعيشون في مناطق طبيعتها نارية . . هل يعنـي هذا مثلا أنهم يعيشون في الطبقات المحترقة تحت الأرض، أم يعني هذا أن تحت الأرض أماكن ومناطق لم نفهمها ولم نستوعبها بعد؟

قبل أن يرد أحد دعوني أقل لكم نتيجة وصلت إليها . .

برغم كل التفـوق التكنولوجي فـإن هناك أماكن فـي الأرض لم نصل إليها بعد . . مثـلا قصة تميم الـداري[16] ورؤيته للدجال علـى جزيرة في

(16) روى مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس قالت: سمعت منادي رسول الله ينادي الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم فلما قضى رسول الله صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال ليلزم كل إنسان مُصَلاَّه. ثم قال: أتدرون لم جمعتكم، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تَميمًا الداري كان رجلاً نصرانيًا فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهرًا في البحر ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أَقْرُبِ السَّفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أَهْلَب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقالوا: وَيْلَكِ ما أَنْتِ؟ فقالت: أنا الجسَّاسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق: قال: لما سمت لنا رجلاً=

وسط البحر . . الآن مع كل ما وصلنـا إليه من علوم لم نجد تلك الجزيرة – أو ربمـا وصل إليهـا البعض ولم يعلـن عنها لأسباب مـا –، هل هي في

= فَرِقنا (خفنا) منها أن تكون شيطانة قال: فانطلقنا سراعًا حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا وأشده وثاقًا مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم، قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم (هاج) فلعب بنا الموج شهرًا ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أَقْرُبِهَا فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا ويلك ما أنت؟ فقالت أنا الجساسة قلنا وما الجساسة؟ قالت اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق فأقبلنا إليك سراعًا وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة فقال أخبروني عن نخل بيسانَ قلنا عن أي شأنها تستخبر؟ قال أسألكم عن نخلها هل يُثمر؟ قلنا له نعم. قال أما إنه يوشك ألاَّ تثمر، قال أخبروني عن بحيرة الطَّبرِيَّة، قلنا عن أي شأنها تستخبر؟ قال هل فيها ماء، قالوا هي كثيرة الماء، قال أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال أخبروني عن عين زغر، قالوا عن أي شأنها تستخبر؟ قال هل في العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال أخبروني عن نبي الأميين ما فعل، قالوا قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال أقاتله العرب، قلنا نعم، قال كيف صنع بهم، فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم قد كان ذلك، قلنا نعم، قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه وإني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليَّ كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدًا منهما استقبلني ملك بيدِه السيف صلتا (مسلولاً) يصدني عنها وإن على كل نقب (الفرجة بين جبلين) منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول الله وطعن بمخصرته في المنبر هذه طيبة هذه طيبة يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم ذلك، فقال الناس نعم، فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو وأومأ بيده إلى المشرق، قالت فحفظت هذا من رسول الله».

مثلث برمودا [17]، أو مثلث فرموزا الذي يعتبر شقيق مثلث برمودا؟؟

هل هي في مكان آخر خفي؟

لاحظوا ورود قصة الأعور المحبوس في جزيرة في أساطير كثيرة.. هل تذكرون جيسون والسيكلوب.. هل هو إسقاط على قصة الدجال؟ الله أعلم.. ولكن ما أثق فيه أننا لم نفهم بعد حقيقة الأرض التي نعيش عليها».

عقب الشيخ على كلام (الحديدي) موافقا:

– «فتح الله عليك يا بني، ها أنت قد لخصت كل شيء..

بقي لي إذن إخباركم أن الدخول لهذه الثغرة ممكن نظريا!

أنا أعرف مكان الدخول، ولكن....هل أنتم فعلا مستعدون لهذه المغامرة؟»

رد (بيدو) على الفور:

– «بالطبع، لن نترك صاحبنا ولكن أين تلك الثغرة؟»

أجابه (الشاعر) ببساطة كأنه يتكلم عن مسلمات:

– «تحت الضريح بالطبع.. أين توقعتموها إذن؟ كل الطرق تؤدي إلى هنا.. إنها نفس نظرية (الردم) التي تكلم عنها الحديدي، فقط مع تغيير في تقنية سد الثغرة!»

أومأ الشيخ برأسه وقام بصعوبة من مجلسه وهو يشير لهم بيده:

«تعالوا معي».

---

(17) ما ورد في الفقرة السابقة هو جزء من بحث قرأته منذ فترة طويلة على النت وليس من أفكار المؤلف.

(25)

يقول ابن فضلان – المتوفى في القرن العاشر الميلادي – في وصف رحلته لملك الصقالبة ببلغاريا:

«ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة..

من ذلك: أن أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرت احمرارا شديدا وسمعت في الجو أصواتا شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه – تشبه الناس – رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضًا رجالا ودواب وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة، ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء وهم يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا.

و كنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان ساعة ثم تفترقان.

فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا. فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون: إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم وهم يقتتلون في كل عشية، وأنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة».

❀ ❀ ❀

(26)

لكن (الحديدي) وقف في مكانه ولم يتحرك..

ملامحه كانت تنطق بعناد صلد، ويعرف (الشاعر) أن هذه مقدمات انفجار آخر!

نظر (بيدو) و(الشاعر) له بتعجب، في حين ظل هو على وقفته المتصلبة وهو ينظر للشيخ قبل أن يسأله:

«أنت تعرف مكان الثغرة من البداية؟».

أجابه الشيخ متعجبا:

«ألم تستمع لما قلته يا ولدي! ألم أقل إننا توارثنا العلم بأماكنها منذ دهور طويلة!».

هز (الحديدي) رأسه بعصبية وشوّح بيديه الضخمتين:

«بلى قلت، ولم أنتبه وقتها لمغزى كلامك.. قل لي أيها الشيخ؛ كيف تعرف مكان ابنك طيلة هذه المدة ولم تفكر ولو مرة في أن تذهب لتبحث عنه!».

رنّت كلمات (الحديدي) داخل الحجرة الصغيرة..

انتبه (الشاعر) و(بيدو) لأهمية سؤال (الحديدي)، ورغم ضيقهما من الأسلوب وفجاجته، فإن الحيرة في وجهيهما نطقت بالتأييد وهما ينظران للشيخ متسائلين..

أومأ الشيخ برأسه ببطء وأجابهم ولمحة ابتسامة تظهر على وجهه العجوز:

«تعجبت أن أحدكم لم يلحظ هذا منذ البداية!».

ثم تنفس بعمق مكملًا:

«لكن... للأسف إجابة هذا السؤال تخصني أنا وحدي.. قديما قالوا (ليس كل ما يعرف يقال وليس كل ما يقال قد حضر أجله و...... ....)».

قاطعه (الحديدي):

«نعم، نعم، سمعنا هذا من قبل، ولا أظنه إلا وسيلة لك أيها الشيخ لـ ....».

قطع (الحديدي) كلامه لما رأى الشيخ يعطيهم ظهره ويتوجه إلى باب بالغرفة وهو يقول بصوت هادئ لم توتره عصبية (الحديدي):

«قد قلت ما عندي.. من يُرِد أن يأتي فليلحق بي!».

دقيقة ولحق به اثنان، ودقيقة أخرى لحق بهما ثالثهما وهو يهمهم بغضب!

❀ ❀ ❀

قـاد الشيـخ الرفاق الثلاثـة إلى بـاب بالغرفـة الملحقة يطـل على سلم حلزوني ظاهر القدم يهبط إلى طابق آخر بالأسفل..

«هـا هنا»قالها الشيخ وهـو يشير إلى السلـم «هذا السلم يقـود إلى أسفل الضريح..تعالوا معي»

كان السلم صعب المـراس، درجاتـه متآكلة الأطـراف صغيـرة لا تكاد تكفي حجم قدم إنسـان.. عرض السلم ضيق جـدًا فلا بديل من حك الأكتاف أثناء النزول..

سأل (الحديدي) الشيخ بعصبية:

–«ألم يجد من بنى هذا السلم مقياسا أصغر من هذا؟ هل بناه لأقزام؟»

رد الشيخ بهدوء وهو ينزل بروية:

– «من يدري!».

❀ ❀ ❀

أرشدهـم الشيخ إلـى غرفة دائرية الشـكل أسفل الضريح فـي منتصفها عمود سميك –لا يقل سمكه عن مترين – يرتفع إلى السقف..

الغرفة يغلب على لونها الأخضر مـع امتلاء حوائطها برسومات عديدة لأشخـاص مجهولة، وآيات من القـرآن، وأبيات من الشعر، وكلام غير مفهوم مكتوب بلغة غامضة مكتوب على العمود.

قال الشيخ وهو يشير إلى العمود:

– «هنا..في أعلى العمود يوجد الضريح».

ثم أشار إلى ذلك النص غير المفهوم:

– «أما هـذا فنص سريانـي تناقلنـاه جيلا بعـد جيل.. سبـب كتابته بالسريانية مجهول، وأما معنـاه فمع ترجمة البعض لـه إلا أن الفهم زاده غموضا!».

سأله (الحديدي) بفضول أنساه عصبيته السابقة:

– «وما الذي جاء في هذا النص؟».

تمتم الشيخ وكأنما يكلم نفسه:

– «أذكر ما قاله لي الشيـخ، وللحق كان ما قاله عجيبًـا.. قال لي إن معنى هذا النص:

(سطح الأرض تحت النجوم

فوق النجوم تحت الأرض

لن يقابل إنسيا خلقا

إلا على أرض سواء

يكون الاثنان فيها واحدا!)

– «هه!».

– «لا تسألني أرجوك، فعقلي تعب من كثرة البحث عن إجابة لسنوات طويلة..ربما تجدون أنتم حلاً لهذا اللغز فـي الناحية الأخرى..الآن هلا تجمعتم هنا؟».

ثم دار حول العمود الذي أخفى الناحية الأخرى من الغرفة، حيث يوجد باب محشور خلف دولاب عتيق به بعض المصاحف والكتب القديمة جداً..

نظر (الحديدي) إلى الدولاب بفضول رهيب وهو يقول: – «يا إلهي! ما كل هذه المخطوطات.. إنها لا تقدر بثمن».

رد الشيخ:

–«و هي أيضا لا تنزع من مكانها! كل ما ترونه أمامكم مكتوب بمداد خاص لن تجدوا مثله أبدًا، ومكتوب وموضوع هنا لحكمة أظنها واضحة لكم».

قالها وهو يحاول زحزحة الدولاب بصعوبة حتى احمرّ وجهه..

– «ألن يساعدني أحدكم!»..

انتبهوا فجأة إلى محاولة الشيخ زحزحة الدولاب فأسرعوا لمساعدته حتى أزاحوه قليلا بما يكفي لفتح باب قديم ظهر من خلفه..

وقفوا يتأملون الباب القديم..

كان شبيها بتلك الأبواب في المساجد القديمة ؛تلك الخالية من المفصلات سوى كرتين منزلقتين في طرفي الباب العلوي والسفلي لفتحه بأكبر زاوية ممكنة.. أطراف الباب مجلدة بحلى نحاسية تحفظه من عوامل الزمان، ومقبضه ربما بني لكف عملاق من العماليق!

نظر الشيخ إليهم:

– «هل أنتم متأكدون؟»..

رد (الشاعر):

– «أكيد يا شيخنا وإلا ما جئنا معك حتى هنا.. هيا توكل على الله».

– «توكلنا على الله» ومد يده يدير مقبض الباب..

❀ ❀ ❀

(27)

«ستحتاج إلى القهوة يا بني»

صب الجنرال (جيمس فورست) القهوة وهو يتكلم دون انتظار رد من كابتن (بارد)..

حافظ كابتن (بارد) على ملامح وجهه الصارمة رغم تقززه من تلك القهوة عديمة الطعم.. يمقت هو ملامح المدنية الأمريكية التي أتت على كل شيء؛ أتت على نكهات الطعام، أتت على جمال النساء، أتت على رائحة السيجار.. كل شيء صار باردًا لما صار أمريكيًا خالصًا، ولولا رحلاته المتعددة لأمريكا اللاتينية لنسي طعم كل ما سبق!

كان هو من هذا النوع من الرجال الذين يؤمنون بالمبادئ والعيش بها، من تلك المبادئ التي عاش ويعيش بها؛ احترام المنصب الأعلى منه..

يعرف هو أيضًا دور كابتن (جيمس فورست) في الحرب وكيف ساهمت خططه في التعجيل بنهايتها – المعدة بدقة– والتعجيل كذلك بصعوده لمناصب القيادة في الجيش الأمريكي.. يشهد بهذا المكتب الفخم المجتمعان فيه الآن!

سأل الجنرال (جيمس) الكابتن وهو يتوجه ناحية ركن الحجرة:

– «أنت لم تفتح بعد المظروف.. أليس كذلك؟».

ثم أكمل ثانية دون انتظار رد:

– «على كل حال لم يكن فهمك ليزداد لو فتحته!».

جاهد كابتن (بارد) ليحافظ على احترافية مظهره وهو يستمع لهذه المقدمة الغامضة، وشكر السنين التي قضاها في حملته بالقطب الشمالي لزرع بعض أجهزة الجيش الأمريكي واختبارها في الظروف شديدة التطرف.. منذ رجوعه من حملته – التي استمرت ثلاث سنوات – وملامح وجهه قد ازدادت صرامة وجمودًا.. (ماري) العزيزة رأت هذا فاتنًا للغاية!

أدار الجنرال (جيمس) جهاز عرض في ركن الغرفة ومع العد التنازلي الذي ظهر على الحائط أكمل:

– «بدأ الأمر قبل نهاية الحرب ببضعة أشهر، لعلك تذكر حوادث حرق القطارات الشهيرة في بلغاريا – قطارات الإمدادات الخاصة بنا؟».

أومأ كابتن (بارد) برأسه فأكمل الجنرال:

– «لم يكن لدينا أي فكرة عما يحدث.. راقبنا خطوط سير القطارات.. فحصنا كل شبر في القطارات.. مسحنا كل السماء بالرادارات.. لكن لا شيء، لم نصل لأي شيء.. فقط تستمر قطاراتنا في الاحتراق المفاجئ.. هكذا بلا أي مقدمات نجد القطار يحترق بأكمله في وقت واحد بلا أي صوت!

لا جهاز تفجير..

لا بقايا متفجرات..

لا صواريخ..

لا وقود مشتعل..

لا شيء على الإطلاق نلحظه، إلا خسارتنا الفادحة بالطبع!

دعني أخبرك، في هذا الوقت من الحرب لم يكن ممكنًا احتمال خسارة كتلك»

سكت قليلًا ليرتشف من القهوة التي بردت، وسر الكابتن (بارد) في نفسه لمرأى ملامح التقزز على وجه الجنرال.

«اللعنة» قالها الجنرال وهو يلقي فنجان القهوة.

«نحن لا نقضي أعمارنا في خدمة البلاد لنحصل على هذا المشروب المقزز!»

وصب لنفسه بعض الشمبانيا دون أن يعرضها على الكابتن، الذي ظل لهذه اللحظة ممسكًا فنجان القهوة دون أن يمسه.. يفتخر كابتن (بارد) أنه لم يمس الخمر طيلة عمره، ويرجع هو كفاءته المستمرة مع سنه الطاعن لحفاظه على هذا..

كانت الشاشة تعرض صورًا لقطارات محترقة عن بكرة أبيها والجنرال يكمل:

- «حينها طلبت مني القيادة تولي هذا الملف ووضع حل له مهما تكلف..

كانت كل الإمكانيات متاحة تحت يدي.. درست الأمر من جميع النواحي وقرأت كل التقارير.. استجوبت كل الشهود وفي النهاية لم أجد إلا حلًا واحدًا......

(طعم حي)».

لم يكن خفيًّا على كابتن (بارد) هذا الحل الذي نفذوه في الحرب كثيرًا..

كان يعلم أن هذا الخيار لا يعني إلا وجود اختراق لأجهزتهم المخابراتية قد يكشف أي طعم زائف.. على الرغم من حتمية هذا الحل في كثير من الأحيان، فإنه يفخر بعدم لجوئه يومًا لاختيار همجي كهذا الاختيار..

توقفت الصور المعروضة على قطار محترق نصف احتراق..

قال الجنرال:

«تضمنت خطتنا تسريب خبر إعلامي بتحرك قطار يحمل إمدادات للخطوط الخلفية بأحدث ما توصلت إليه أجهزتنا.. الخبر مضمونه تحول نوعي في سير العمليات بعد هذا المدد، واحتاج هذا منا إلى سيل من العمليات المعقدة.. خذ عندك - قالها وهو يعد على أصابعه:

تسريب الخبر للصحافة..

متابعة أجهزة المخابرات لكل قنوات الاتصال..

تقارير فعلية للقادة في الخطوط الخلفية عن احتياجهم لهذه الإمدادات..

نحن – كما تتخيل – لم نزيف شيئًا، بل استغللنا التقارير الفعلية التي أرسلها قادتنا مع إضافة بعض التفصيلات الصغيرة لتخدم أهدافنا..

احتجنا تجهيزات أمنية على أعلى مستوى بالتعاون مع القوات الشرطية والشيء الوحيد الذي زيفناه هو حمولة القطار، إذ لم نحمله إلا أجهزة الدفاع الجوي فقط – ليس لصد أي هجوم ولكن لتقليل حجم الخسائر – بالإضافة إلى السائق طبعًا!

وعلى طول خط القطار وضعنا كشافات إضاءة متطورة موجهة للسماء».

سكت قليلًا ثم أكمل وهو يشير بالسيجار الذي أشعله منذ قليل إلى الكابتن:

– «لم يكن هناك إلا السماء.. لم نجد حلًا لهذا اللغز إلا في السماء.. لا توجد أي آثار – كما قلت لك – لتفجيرات.. لا توجد منصات إطلاق..لا توجد مقذوفات..إذن ليس إلا السماء بالرغم من أن راداراتنا لم تعثر على شيء، ولكن التقارير التي كانت تأتينا كل فترة باحتمالية تطوير الألمان لسلاحهم الجوي ودعاية هتلر لذلك كانت تفتح لنا الباب لمثل هذا الاحتمال.. في منتصف الليل بدأ القطار في الاحتراق الصامت إياه لكننا كنا مستعدين.. المفاجأة هذه المرة كانت من نصيب الأوغاد الألمان.. أشعلنا السماء فجأة بكشافات الإنارة وبالفعل لاحظنا على ارتفاعات غير مسبوقة بقعًا ضوئية تتحرك بسرعات عالية جدًا، وكأنما أصابها الجنون

حين كشفنا أمرها فقد بادرت بالهجوم مضحية بغطائها السري واحترقت فورًا منصات الدفاع الجوي، لكن القوات الجوية كانت تنتظر الإشارة للتدخل، وبالفعل امتلأت السماء بطائراتنا في محاولة لمطاردة تلك البقع الضوئية..لا تتخيل الحماس الذي أصابنا وقتها لما أكدت الطائرات أن أجهزة الرادار قد تمكنت من رصد تلك البقع الضوئية.. هل تعلم ما الذي وجدناه بعد مطاردة طويلة؟؟

هذا.......»

قالها وهو يشير إلى آخر صورة استقرت على الحائط..

صورة مشوشة لطبق طائر أسود على شكل جرس عليه الصليب النازي الشهير!

❀ ❀ ❀



(28)

كان الباب سميكًا صدئ المفاصل، لذا وبالرغم من تعاونهم كلهم فبالكاد استطاعوا فتحه قليلًا لتهب عليهم عاصفة من الغبار - المتراكم خلفه - أغشت أعينهم..

بعد دقيقة - ولما استطاعوا فتح أعينهم - وقبل حتى أن ينظروا في الظلام البادي خلف الباب دوى صوت مألوف من خلفهم:

«جميل جدًا.. فعلت كل ما كنا نتمناه أيها الشيخ!»

التفتوا جميعًا ليجدوا قوة من رجال الشرطة قد تسللت على حين غرة منهم، في منتصفها يقف ضابط أمن الدولة الذي حقق معهم وهو يقول:

- «ما كنا نتمنى أكثر من هذا.. لو تعلم فقط كم انتظرنا مثل هذه الفرصة»!

ودون أن يجد الثلاثة أي فرصة كانت القوة قد طرحتهم أرضًا والضابط يزيح الشيخ جانبًا ليفتح الباب عن آخره بمساعدة بضعة من ضباطه..

❀ ❀ ❀

ارتج المكان بسباب ضابط أمن الدولة الفاحش من صدمة وجود حائط صخري خلف الباب ولا شيء سوى هذا!

التفت إليهم وهو يأمر جنوده بعين تتقد غضبًا:

«خذوهم إلى الحجز».

❀ ❀ ❀

(29)

ترك الجنرال (جيمس) الثلج يتكسر على وجه كابتن (بارد) متبسمًا، كان قد تراهن بينه وبين نفسه على اللحظة التي ينكسر فيها وجه الثلج هذا!

بعد دقائق من الذهول تكلم كابتن (بارد) بصوت خافت: – «لكن.. سيدي، اسمح لي، أنت تعلم أننا لم نصطدم في الحرب بأي من مثل هذه الأشياء... لو كانت ألمانيا فعلا تمتلك مثل هذه التكنولوجيا لما تأخرت في استخدامها ولما اكتفت بحرق قطارات البضائع!»

– «نقطة جيدة يا (بارد)... ولكن هناك أكثر من إجابة لتساؤلك.. فهل تخمن أيا منها؟».

– «أستطيع أن أخمن واحدة بالطبع سيدي، ربما كانت بدايات تجارب لم تكتمل بعد..لكن.. كل تجارب ولها بدايات حتمًا، وحسب علمي لم تأتنا أي استخبارات بمثل هذه البدايات!».

نظر الجنرال بعمق للكابتن (بارد):

– «هل هذا فقط ما يأتي في ذهنك..ألا يوجد احتمال آخر!».

ترك الجنرال بضع دقائق لكابتن (بارد) ثم أكمل:

– «على كل حال صعب أن يخمن أي أحد أن الألمان لم يكونوا يجربون سلاحًا سريًا.. بل هم في الواقع سرقوه!».

«سرقوه!! !».

انتفض كابتن (بارد) وهب واقفًا ناسيًا كل صرامة كان يفخر بها يومًا!

قال الجنرال وهو يشير إلى كابتن (بارد) ليجلس:

«بالصدفة البحتة أيضًا.. الأوغاد كانوا محظوظين فعلًا!».

❀ ❀ ❀

(30)

الصمت عمَّ الجميع وسيارة ترحيلات مصمتة تأخذهم لبقعة نائية جنوب الإسكندريــة حتــى توقفـت أمام فيـلا تحيـط بها سيـاج عالية عنـد بحيرة ماريوط..

كان الوقت قـرب منتصـف الظهيرة لمـا فتح لهـم أحد الضبـاط باب السيارة، ولاحظ الأربعـة على الفور والضابط يدفعهـم للدخول من باب الفيلا الضيق أنها معزولة تمامًا عما حولها وتحيط بها أراض رملية بيضاء خالية من مظاهر المعيشة..

الفيلا من الداخل تحاكي خارجها هـدوءًا وانعزالًا، ويبدو أنها لا تُسكن إلا حين يأتيهـا «ضيوف» مثلهـم - هكـذا وصفهم الضابـط لصول غليظ الملامح فتح لهم الباب «معنا ضيوف».

استلمهم الصول من الضابط وقادهم إلى البـدروم، وقال بصوت أشد غلظة من ملامحه وهو يغلق عليهم باب زنزانة ضيقة:

«حتى يأتي من يحقق معكم، غير مسموح حتى بالتنفس».

وأغلق الباب بعنف غيـر مبرر، وسمعوه وهـو يتبادل سبابًـا فاحشًا مع الضابط بالدور الأعلى قبل أن يتبخر أثره تمامًا ويحتويهم الصمت..

❀ ❀ ❀

«لست أفهم شيئًا!».

دوى صوت (بيدو) فتردد صداه في الزنزانة الضيقة.

رد الشيخ بصوت متعب جدًا:

- «يا بني افتح عينك قليلًا.. للشيطان أتباعه في كل مكان.. ما العجيب أن تجد أفـرادًا في جهاز سيـئ السمعة كهذا قد تحالفوا مـع شياطين الإنس والجن! واضح أنهـم تتبعوكم منذ حققوا معكم.. كنـت أعرف منذ مدة أن لهم أعينًا ترصد المسجد، لكني لم أكن أربط هذا ببحثهم عن باب الدخول، كنت أظن هذا لكثرة الحاضرين مجلس الذكر».

قال (الحديدي) بصوت ساخر:

- «عـن أي باب للدخـول تتكلم أيهـا الشيخ! مـا حسبناه بابًـا كان في الحقيقة خدعة لا أعلم كيف صدقناهـا.. الآن أنا أشك في كل ما قلته.. ربما لا يتعدى الأمر مقبـرة من المقابر القديمة.. كل مـا جنيناه هو الحبس من أناس لم يحترموا حتى حرمة المكان».

كاد الشيخ أن يرد لولا شهقة صدرت من (الشاعر) وهو يهب من ركن الزنزانة واقفًا:

- «يا إلهي.. يا إلهي.. بالضبط يا (حديدي).. حرمة المكان.. هذا هو المفتاح».

نظروا جميعًا إليـه بعدم فهم - فيمـا عدا الشيخ الذي ظهـر على وجهه الفهم الأليم..

التقطت عينا (الشاعر) تلك النظرات على وجه الشيخ فقال:

- «نعم يا شيخنا، ليس هناك حل آخر، أنت فهمت مقصدي».

هز الشيخ رأسه وهو يقول بصوت واهن:

- «نعم يا ولدي.. لابد أن تكتمل تضحيات السادة في نهاية الأمر»

تدخل (الحديدي) في الحوار زاعقًا:

-«عن أي شيء تتكلمون؟؟ ألا ينتبه أحد إلى المصيبة التي نحن فيها!».

هدأ بيدو من روع (الحديدي):

- «يا حديدي ليس هذا وقته أرجوك.. ليس بعد كل ما قطعناه، فلنستمع إليهما على الأقل».

أكمل (الشاعر) وهو ينظر إلى الشيخ مستمدًا:

- «أنا قرأت من قبل سيرة صاحب المسجد.. كان مجاهدًا، قتلته أيدي جنود الحاكم بعد وشاية حقيرة، ويقال إن جسده تم تقطيعه انتقامًا من جهاده.. لكن تلاميذه حرصوا على دفنه وبناء ذلك المسجد فوق ضريحه حماية له من بطش الملك.. مع الوقت ومع انتشار صيته صارت حلق المسجد سدًا منيعًا ضد انتقام الملك الذي اضطر للاكتفاء بقتله حيًا مع فشله في قتل سيرته.. الآن ألم يلفت نظر أيكم هذا العمود الضخم تحت الضريح؟! ألم يكن يكفي مَن بَنَى أن يضع ضريحًا في الغرفة السفلية وآخر رمزيًا في صحن المسجد؟! لم يكن أحد لينتبه أو ليحاول أن يفتش بناء الضريح في صحن المسجد.. الأمر الآن واضح تمامًا.. ليس لدخولنا الباب من سبيل إلا بنبش الضريح، بالضبط كما فعل الجنود به حيًا فلابد أن يكتمل جهاده وهو منتقل..

لكن للأسف سيكون علينا نحن فعل هذه الفعلة الشنيعة.. أليس كذلك أيها الشيخ؟».

تنهد الشيخ متأسفًا وهو يقول:

- «للأسف.. غير أنها ليست فعلة شنيعة كما تتخيل.. يا ولدي ليس الجسد إلا وعاء، أما الروح فأعظم ولا حد لها، وليس انتقال السادة إلا انطلاق لرحاب أوسع بلا قيود.. هذا هو القول الحق - ثم التفت (للحديدي) وهو يكمل - مهما اعتقد من اعتقد غير ذلك».

سكت (الحديدي) برهة وهو يتبادل النظرات مع الشيخ قبل أن يقول بصوت مكتوم:

- «جميل.. فليكن كلامكما صحيحًا.. هل يخبرني أحدكما كيف سنخرج من هنا إذن؟».

كان أذان الظهر يأتي من بعيد والشيخ يرد:

- «هل حسبت أن الشياطين فقط من لهم أعوان؟».

فُتح باب الزنزانة في نفس اللحظة والصول غليظ الملامح يحمل طستًا من الماء وهو يقول:

- «وضوءك سيدي».

«ضعه هنا يا ولدي» قالها الشيخ وهو يرمق (الحديدي) بابتسامة حانية!

❀ ❀ ❀

نسمات الفجر كانت منعشة لأجسادهم المرهقة وهم يتسللون من باب خلفي لذلك المبنى المحتجزين فيه..

انتبهوا أن الشيخ لا يتبعهم فالتفتوا ليجدوه واقفًا بجوار الصول.. قال وهو ينظر إليهم بحنية بالغة وشفقة:

«لا يجب أن يتحمل هذا الرجل الطيب الأمر وحده.. أليس كذلك؟».

فهموا على الفور مقصده فقال (بيدو)جزعًا:

- «ولكن يا شيخ.......».

قاطعه الشيخ:

- «لا وقت لهذا يا ولدي.. ثم من قال لكم إن ما سأواجهه أشد مما أنتم مقبلون عليه؟ الآن هيا بسرعة وإلا ضاع كل هذا سدى».

شد (الحديدي) ذراعيهما وهو يهمس بتوتر:

«هيا، هيا، الشيخ معه حق.. لنهرب الآن قبل أن ينتبه لنا أحد».

ورغم فظاظة (الحديدي) وهو يدفعهما فإنهما تبعاه وسمعا من خلفهم تكة ترباس باب يغلق ببطء وخفوت..

❀ ❀ ❀

(31)

(روسيا.. العام 904 بعد الميلاد، من واقع السجلات الروسية الأثرية).

تحركت جيوش أمير روسيا (أولج) متوجهة لغزو اليونانيين في القسطنطينية..

تحكي السجلات أن الجيش الخارج من (كييف) تكون من عدد هائل من المشاة والسفن البحرية ومعدات أخرى مجهولة!

عند الوصول إلى أسوار القسطنطينية وجد الأمير (أولج) اليونانيين قد حصنوا المضائق وأغلقوا الطريق إلى مدينتهم فأمر بإعداد معسكر الجيش أمام أسوار القلعة على الشاطئ..

السجلات تحكي عن مقاومة اليونانيين الهائلة حتى استمرت المعركة أسابيع عديدة أصابت معها معنويات الجيش الروسي في مقتل..

ثم تنتقل السجلات فجأة للحكاية عن نجاح الروس وغزو المدينة بين يوم وليلة!

ولا تحكي لنا السجلات كيف حدث هذا لولا نص غامض لأحد الجنود يقول: «بعد مرور ثلاثة أسابيع وعندما صارت الرياح في وجوهنا نصبت

السفن الروسية أشرعتها وحلقت فوق رءوسنا، وأمام أنظارنا فتحت أبوابها ونزلت منها خيول ذهبية عليها فرسان غريبة الشكل أمطرونا بوابل من السهام لم نقدر أن نصده».

❀ ❀ ❀

(32)

قال الجنرال جيمس لكابتن بارد المتجمد وجهه على ملامح الدهشة:

- «صدفة عجيبة.. صدفة لا تتكرر إلا كل مئات السنين!!

طبق طائر يسقط بعد أن اختل توازنه بجوار أحد المختبرات السرية الألمانية المنتشرة تحت الأرض.. أي حظ هذا!!

كل ما بعد هذا هو تخمين، ولكن ما وصلت إليه استخباراتنا هو احتمالية حدوث تواصل مع مستخدمي ذلك الطبق.. بشكل ما حدث تواصل بين الألمان وتلك المخلوقات، وتم تمرير معلومات عن صناعة الأطباق الطائرة إليهم.. البعض منا يعتقد - وأنا منهم - أن الأمر كان قهرًا وأن الألمان أذاقوهم ويلات الجستابو، والبعض الآخر يعتقد بوجود تعاون.. لا يهم على كل حال، ففي نهاية الأمر صارت تلك التكنولوجيا معهم.. يدعم هذا أن الطبق الطائر الذي تراه أمامك على جوانبه كتابة غير أرضية بالمرة.. ما نستنتجه أنهم فقط وضعوا صليبهم على الطبق ولم يصنعوه!»

استمر صمت الكابتن (بارد) مع استمرار كلام الجنرال: - «لكن... ليسوا هم فقط المحظوظين... أتعرف لقد أسديت لنا يا كابتن خدمة العمر وأنت لا تدري!»

ثم انفجر في ضحك قطعه الكابتن:

- «سيدي.. لم أعد أحتمل المزيد من المفاجآت.. أي خدمة تقصد وأي صدفة؟»

- «دعني أخبرك.. لقد حاولنا تتبعهم ولكن فشلت كل محاولاتنا.. كانت أجهزة ملاحة أولئك الأوغاد متقدمة عنا بدهور، ولكنهم لم يحسبوا حساب أجهزة مزروعة في القطب الشمالي.. أجهزة كانت لدراسة قدرات التحمل المختلفة. أجهزة لم يزرعها هناك إلا أنت يا كابتن!!».

- «هل تقصد..؟!».

«هو ما فهمته يا كابتن، الأوغاد كانت لهم قواعد في القطب الشمالي.. قواعد مختفية لم يفضحها إلا أجهزتك.. هم لم يتوقعوا وجود من يراقبهم هناك!».

سأل الكابتن (بارد) بصوت متردد:

- «سيدي؟ هل مهمتي إذن هي....».

قاطعه الجنرال بصوت مخنوق من الحماس والضحك:

- «نعم يا كابتن... ليس غيرك يعرف أغوار تلك المنطقة.. أنت وحدك من ستطاردهم هناك. لديك ميزانية مفتوحة.. خذ ما شئت من القوات، ولكن الأهم أن تأتي لنا بسر هؤلاء الأوغاد. حافظ على حياتك يا كابتن، لا داعي لبطولات زائفة فلربما تكشف لنا سرًا أعظم بكثير من حفنة نازي غبية!»

❀ ❀ ❀

(33)

نظر (سكر) إلى كابتن (بارد) والدهشة بادية عليه..

هل يعني هذا أن الرجل عمره يتجاوز المائة عام بعقود!!!!

من جديد تجسدت الدهشة ففهم الكابتن ما يحير (سكر):

- «نعم.. فللزمن هنا مقاييس أخرى!»

سكت الكابتن قليلًا وهو يميل برأسه وكأنما يتنصت لشيء ثم أكمل مسرعًا وهو يهب من مجلسه مشيرًا (لسكر) أن يتبعه وقد بدا على وجهه جزع يحاول أن يخفيه:

- «هيا بنا الآن.. إنهم قادمون إليك.. سأكمل قصتي لك في الطريق»

- «هم! من هم! وماذا عن هؤلاء؟» وأشار لتلك المخلوقات الرمادية التي تكومت- مرهقة- في ركن الحجرة:

- «لا تقلق بشأنهم، هم يستطيعون التصرف بكل تأكيد».

ثم لم يدع (لسكر) فرصة التعقيب وانصرف!

❀ ❀ ❀

(34)

كان (الشاعر) يبكي وهو ينبش الضريـح، ولم تمر دقائق إلا وصاحب القبر قـد بدا لهم ملتفحًا فـي الأبيض الناصـع تفوح منه رائحـة المسك.. حملوه برفق ووضعوه على مائدة بركن الحجرة..

وأمـام أعينهم تبدَّى بـاب دائري في قلـب أرضية الضريـح يقود إلى الأسفل..

نظر (بيدو) خلفه وسأل (الحديدي) وهم ينزلون السلم متتبعين للشاعر:

– «هل مازلت تفكر في أمر الشيخ؟»

رد الحديدي:

– «نعم يا (بيدو).. الأمر غير منطقي تمامًا، إن كان الشيخ يعرف كل هذا فلماذا لم يحاول إنقاذ ابنه؟»

سمعوا صوت (الشاعر) من باطن الظلام يحثهم على اتباعه..

كانت الأسئلة الآن خلف ظهرهم..

أو فوقه!

(نهاية الجزء الأول)

❀ ❀ ❀

الصحراء البيضاء

(1)

لم يكن هناك وقت لمزيد من الكلام، لأي كلام على الإطلاق..

انطلق كابتن (بارد) يركض بلا انتظار رد من سكر، وفي ركضه التقى بحائط الغرفة فاختلط بذرات الحائط - أمام أعين (سكر الذاهلة - وهيئ لسكر أنه يرى شكل الذرة الشهير قبل أن يختفي الكابتن خلفه!

في ركضه وجزعه الذي ظهر عليه لم ينتبه لتعليم (سكر) الطريقة، لكنّ إحساسًا بداخل سكر أخبره أن الحائط يستجيب فور الاقتراب منه، وبالفعل ومع المرور داخله شعر أن ذراته وذرات الحائط تتداخل وأن ذاكرة عابرة مرت به شاهد فيها مشاهد سريعة جدًا لأناس لم يتبينهم؛ ذاكرة الحائط ومن مروا به في السنين الغابرة!

أيحتفظ الحائط بذاكرة من مرّ به!

الناحية المقابلة للحائط رأى ممرًا طويلا لا نهاية له - ممرًا قديمًا يشبه ممرات المعابد الفرعونية - غير أن الرسومات على جانبيه لم يقدر أن يفهم أصلها أو معناها!

على البعد شاهد كابتن (بارد) يجري بأقصى سرعة..

من مشهد ركض الكابتن فزع!

ومن جديد تجسد فزعه أمامـه.. الآن يشاهده بدقـة؛ هالة تخرج من خلايا جسده، حمراء اللون، وفـي ثانية كانت تحيط بالكابتن وتسقطه على وجهه صارخًا!

وبعد أن هدأ الغبار من سقوطه التفـت الكابتن بصعوبة محاولًا استجداء (سكر):

– «أرجوك

– كان النطق بصعوبة التكلم بلسان من حجر –

لا.....

وقت.....

لهذا».

لهث كأنما يتكلم منذ ألف عام..

«حاول..

أن..

تتحكم..

في مشاعرك».

انتبه (سكر) لنفسه..

يتذكر الآن (الشاعر)..

من قبل حدثه عن تمرينات التأمل..

تبدأ دومًا بالتنفس الهادئ..

يملأ بطنه بالهواء ويخرجه بهدوء من فمه..

بهدوء أكثر يتنفس ويملأ بطنه..

الهالة الحمراء تبدأ في الاختفاء..

«هكذا» قالها الكابتن (بارد) وهو يقف على قدميه ويلهث.

«سنحتاج وقتًا طويلًا يا صديقي لتتحكم في قواك هذه!».

«و لكن......».

«أرجوك.. لا وقت للشرح.. المهـم أن نبتعد الآن قدر المستطاع.. لو أنهينا الممر في الوقت المناسب لن يكون بإمكانهم لحاقنا».

«ألن تخبرني من هم على الأقل؟».

نظر إليه كابتن (بارد)، وازن الأمر فـي عقله، واضح أن الحيرة التي فيها (سكر) ستعرقـل هروبهما بأي حال من الأحوال، فلـم يكن لديه بديل عن الكلام:

– «أنا أعلم أن كل شيء محير بالنسبة لك، ولكن.... ربما يفيدك أن تعرف أن هـذا العالم بـه أكثر من فريـق، البعـض يمكنـه أن يساعدنا، والبعض يريد أن يضع يـده عليك.... الآن أرجـوك، أرجوك – قالها وهو يشاهد من جديد هالة الفزع تبدأ فـي التجسد –تنفس واهدأ.. نعم هكذا أحسنت.. كما أقـول لك، هناك من يريد أذاك، وهنـاك من يساعدك.. أنا هنا كما ترى، ومَن قابلت من قليل أيضًا هنا ليساعدك.. هذه أول قاعدة تعرفها.. هؤلاء – الذين قابلتهم من قبل – اسمهم الرماديون.. كما ترى

اسم واضح، هـم في منتهى التعـاون معنا، بعـد هذا لما تقابـل أحدهم فلا داعي لكل هذا الفزع، إن فزعك سلاح خطير»..

فكر (سكر) في نفسه:

-«كثير.. هذا كثير».

لكن الكابتن لم يمهله:

- «أرجـوك.. هناك ممـر طويل نحتـاج أن نقطعه، أنـا كما ترى - وبرغم كل شيء - عجوز.. لو كنت متحكمًا في قدراتك لاستطعنا اجتياز هذا الممر في ثانية، لكن الآن ليس لنا إلا الركض».

❀❀❀

كان سكر يركض بجواره وهو يلهث فخرج الكلام منه متقطعًا:

- «و..لكن.. أين... نحن... بالضبط؟؟».

لبرهة لم يرد الكابتن، ثم توقف ليلتقط أنفاسه:

- «تحت الأرض طبعًا.. أين ظننتنا نكون؟!».

- «تحت الأرض!!!! تريد أن تقنعني أن كل هذا تحت أرضنا!!».

نظر إليه الكابتن بتعجب:

- «أرضنا!! من قال هذا؟!».

❀❀❀

(2)

كان هذا كثيرًا جدًّا!!

هو قد تحمل سنين طويلة من السخرية والاستهزاء بأفكاره..

كون الناس لا تفهمه..

كون الناس غير مقدرة لمشاعره..

كون الناس لا تهتم إلا بما هو مادي فقط......

فليس هذا داعيًا أبدًا لرميه باستهزائهم كل فترة..

أكثر من هذا، ليس هـذا داعيًا أبدًا للشك في رجـل أفنى عمره في بيت الله وخدمته..

«رجل شهدنا كلنا أنه ضحى بنفسه من أجلنا».

هكذا صرخ (الشاعر) وهو ينقض على (الحديدي)!

كان (الحديدي) أكبر حجمًا وأشد قوة، لكـن (الشاعر) كان أكثر غضبًا وامتلاءً بالحنق والغيظ..

سنين طويلة احتمل سخرية (الحديدي)..

احتمل سخريته من مشاعره ومن معتقداته..

احتمل كل اتهاماته بالخرافة والخزعبلات..

حتى وهم ينزلون من الفتحة التي تحمل دليل صدق الشيخ.. كان (الحديدي) بشكه لا يطاق..

حتى وهو يهمس لـ (بيدو) رنَّ صوته في المكان كأنما يريد أن يُسمعه همسه!

أي عقل هذا؟!

وأي قلة ذوق هذه؟!!!

أقله، احتفظ بأفكارك لنفسك يا هذا لا أن تنشرها في الهواء فتسمم بها أبداننا!!

❀ ❀ ❀

كانت لحظة الارتطام شنيعة..

(الشاعر) يرتطم بوسط (الحديدي) وهو يقفز عليه حاملاً معه الوزن العالي لغريمه إلى الأرض..

(الحديدي) تأخذه الدهشة..

ملامحه تنطق بها..

ثم تتبدل ملامحه مع ألم أول لكمة تصيبه في فكه..

دقائق من الدهشة أظهرها وجهه الضخم، ثم أتبعها غضب هادر من هذا الأرعن الذي يهاجمه..

ليس فقط أنه تحمل ترهات وخزعبلات شخص نسي عقله في خزانة الأحذية، لكن أن يدخلوا بأرجلهم في فخ لرجل عجوز خرف، فهذا كثير!

كانت أصابعه الآن تمسك بعنق (الشاعر) بعد أن فاق من الدهشة واستبد به الغضب متوليًا زمام الأمور:

– «أيها الأحمق ارحمنا من خرافاتك هذه».

– «بل أنت يا فاقد الإحساس والشعور ارحمنا».

لكمة أخرى هنا وركلة هناك..

يتدحرجون على السلم وصوتهم يتناثر على الجدران السميكة..

يتقلبون وهم يتقاتلون..

«أيها الأغبياء».

هذه المرة كان صوت (بيدو) الذي هرع خلفهما وهو يصيح:

– «إلى متى أحتمل غباءكما هذا؟! هل وصلت بكما التفاهة لهذا الحد؟.. في وسط ما نحن فيه وأنتما تتشاجران كالأطفال!».

انتبهوا جميعًا لصدى الصوت العجيب الذي ظل يتردد..

نظروا حولهم، فإذا صحراء بيضاء وجبال شاهقة!

لا أثر لسلم كانوا من دقائق ينزلون عليه!

– «أين نحن؟».

من بعيد لمحوا شيئًا يقترب أنساهم إجابة السؤال..

❀ ❀ ❀

(3)

أخيرًا وصلا لنهاية النفق التي كانت ظاهرة عن بعـد، وتوقفا ليستردا أنفاسهما . .

وقف (سكـر) يتأمل الجـدران والنقوش عليها؛ الجـدران تفوح بقدم شديـد، وكـذا الرسومـات المنحوتة داخلهـا أحيانًا والبارزة فـي أحيان أخـرى، تبدو فـي كثير من الأحيـان كخليط بيـن النقوش الفرعونية ورسومات المايا الشهيـرة وكتابات بلغات أخرى لم يعـرف (سكر) عنها شيئًا!

أحيانًا وهو يركض كان يهيأ إليه أنه لمح نصًا بالعربية فيبطئ ليتأمله ثم يكتشف أن الحروف فقط قريبة الشبه للغة العربيـة غير أنها ليست مفهومة بالمرة بالنسبة له، ثم يعاود الركض ثانية على صراخ الكابتن الفزع!

لأول وهلة بدت نهاية النفق مسدودة، ولكن نظرة متأنية لجانب الممر الأيمن كشفت له عن نفق آخر يهبط للأسفل عكس الاتجاه فلا تلتقطه العين غير المدركة . .

في أول ذلك النفق الجانبي بوابة دائرية حديثة متناقضة جدًا مع المظهر القديم للجدران تذكر معهـا (سكر) أفلام حروب الفضـاء وهو يسير خلف الكابتن ناحيتهـا، وهو يسيطر على هالـة دهشته التي بدأت فـي التجسد لما شاهد البوابة تبدأ في الإضاءة وتزداد إضاءة مع اقترابهما كل خطوة، وفي

اللحظة التي كادت تعمي أبصارهما كانا قد عبرا منها!

تنهد الكابتن في ارتياح:

- «الآن نحن في أمان».

ثم أضاف وهو يشير بيده إلـى الممر الحديث المختلـف تمامًا عن ذلك القابع خلف البوابة:

«مرحبًا بـك في أنفـاق دولسي[18]، طريقنـا إلى مدينـة القوس قزح الشهيرة[19]!».

❀ ❀ ❀

---

(18) Dulce tunnels.

(19) Rainbow City.

(4)

رفيقي (أسامة) متوتر..

عشرة السنين والتواصل بيننا أنبئاني بهذا..

ومثله كنت أنا متوترًا، ورغم خبراتي التي تعدت العقود هنا ومعرفتي كيف أسيطر على أفكاري ومشاعري فإني هذه المرة احتجت لخلوة كاملة أضبط فيها نفسي..

خلوة قاربت الأربعين ساعة في المسجد القابع فوق بوابة قلعة الجبل - جبل مقيطام الحكيم الذي أودعه من تسمى باسمه أسرار الكون كلها..

أقول احتاج الأمر مني لأربعين ساعة من الخلوة، لكن يبدو أن رفيقي (أسامة) يحتاج لأكثر من هذا، على كل حال فجده قطمير - المرسومة صورته على جدران الكهف مفترشًا الأرض أمام العظماء السبعة - له تاريخ في خلوة تعدت هذا بمئات الأضعاف!

أشعر الآن بذبذبات توتره تنبض في المكان حتى كأنها دق الطبل..

«رويدك يا صديقي، رويدك..

نحتاج لصفاء الذهن الآن كأشد ما يكون..

أنا معك أن الأمر مقلق..

كم مرة شهدنا جرأة الزاحفين هؤلاء حتى يأتوا للصحراء البيضاء!

هم حتمًا أدركوا فرصة يهون معها ما يفعلونه..

صدقني أنا مثلك مرتعب، لكننا نحتاج للتفكير، نحتاج أن نعرف ماذا يدبرون!».

❀ ❀ ❀

(5)

تعمد (سكر) ألا يسيطر على نفسه..

الآن هو متأكد من حقيقة ما يملك؛ في هذا العالم يتجسد ما يشعر به..

وهو الآن يريد أن يفهم قبل أن يتحرك خطوة واحدة جديدة..

ألم يقل الكابتن إنهما بأمان؟ إذن لا داعي للعجلة..

كان الكابتن قد همّ بالسير في طريقهما إلى مدينة قوس قزح تلك لكن هالة (سكر) من جديد تجسدت أمامه، الآن - مع قصد سكر - لونها الأحمر صار كثيفًا ثقيلًا، له وجود، وله بُعد..

يشعر (سكر) بها تنبع من أسفل عموده الفقري - بالضبط خلف منتصف البطن - كأن قلبًا نابضًا هناك..

يشعر بحرارتها..

عامود من جسده يحسه يتصل بالأرض كأن له جذورًا في الأرض!

يشعر باتصال غير عادي بالأرض، بثبات يفوق بمراحل ثبات القدم..

كل خلية في جسده لها جذور عميقة بأسفل الأرض..

يعرف هو أن رغبته هنا مطاعة..

يعرف أن الكابتن لن يتحرك من مكانه إلا بأمره..

هالته تتعاظم ويملأ المكان اللون الأحمر..

اللون له وجود ثقيل يألفه.. وجوده هو..

له رائحة تخترق الفم والأنف والخلايا كاختراق الطيف للجسد، لو للأحمر رائحة في العقل لأسماها لتلك التي تفوح الآن..

تتوجه إرادته الآن للكابتن..

يرى هالته تحيط به، تخترقه، تسقطه أرضًا..

يرى جسد الكابتن يتحجر في مكانه..

يزداد نشاط هالته لما اتصلت بجسد الكابتن فيشعر الكابتن بشلال ينصب عليه من اللون الأحمر والرائحة الحمراء!

يحاول أن يتحرك، لكن قدمه تحجرت..

يحاول أن يلتفت، لكن عنقه تحجر..

يحاول أن يصرخ، لكن لسانه تحجر..

- «نعم... أنا أقصد هذا!»..

صوت (سكر) يدوي في الخلايا وفي المكان..

يتموج فيهز الجدران بلا صوت!

كان قويًّا مسيطرًا..

- «الآن من جديد أقولها، أريد أن أعرف كل شيء.. لا مزيد من الألغاز».

لم يترك هذا للكابتن أي اختيار..

❀ ❀ ❀

(6)

(قبل الأحداث الأخيرة بقليل)

«كالعادة أهتم أنا بما ينسونه».

كذا حدّث (الحديدي) نفسه وهو يلتقط الخريطة التي كان قد أراهم إياها الشيخ من قبل..

الحماسة أخذت (الشاعر) ثم (بيدو) والعقل والحكمة أوقفتا (الحديدي) في آخر لحظة، فعاد للغرفة دون أن يشعرا به.

نظر حوله في الغرفة التي خلت إلا منه متأملًا..

مازال يشعر أنهم يندفعون ناحية مجهول - على الأقل - إن لم يكن فخًا..

وقبل أن يعود ويتبعهما أغلق باب الحجرة من الداخل وأحضر سجادة صلاة قديمة ملفوفة في ركن الحجرة ليغطي بها الفتحة بعد أن يهبط.. لحسن الحظ أن غطاء المقصورة يمكن غلقه، وكأن صانعه يريد ذلك..

كان قلقًا من النزول في الظلام تحت الأرض بلا أي مصدر للضوء لكن أول خطوة له على السلم أنسته هذا الخوف، المكان كله مضاء إضاءة مجهولة المصدر..

ولم يكن هذا ما لفت نظر (الحديدي) بل النقوش على الجدران!

هي فقط ما لفتت نظره أثناء نزوله!

النقوش الفرعونية تارة..

البابلية تارة..

نقوش المايا تارة أخرى..

كتابات عربية بدون نقط..

ثم تلك الكتابات الشبيهة بالعربية التي رأوها من قبل، قال الشيخ إنها سريانية، الآن يضيف إلى تشككه سببًا آخر، لم ينتبه وقت أن كلمهم الشيخ إلى أنه قد شاهد من قبل مخطوطات سريانية وتلك اللغة المكتوب بها الكلام ليست سريانية بالمرة!

بالرغم من هذا يشعر بأنها لغة مألوفة يقدر أن يفهمها!

جزء من عقله يخبره بهذا، جزء بعيد في حنايا الوعي، فقط يحس أن بينه وبين الفهم جدارًا سميكًا!

لم ينتبه أنه ينزل بشكل حلزوني وأن المكان يتسع كلما نزل..

لم ينتبه أيضًا أنهم في الواقع ينزلون من أعلى هرم دائري.. ينزلون من باطنه وليس من حدوده الخارجية على سلم محفور في باطنه!

يسمع عن بعد أصوات (الشاعر) و(بيدو)..

ينتبه.....

ومع انتباهه تثور مشاعره بداخله..

«الأحمق، نسير خلف ترهاته وترهات هذا الشيخ المخرف!».

لا ينتبه أن صوت أفكاره يدوي في المكان!

«كل ما قاله لنا يحتمل ألف شك وشك».

ليس فقط أن صوته يدوي ولكن للصوت رائحة تزكم الأنف!

«كيف علم الشيخ كل هذا؟».

«لماذا لم يحاول هو النزول من قبل إن كان حقًا ما يقول؟».

«لماذا لم يبحث عن ابنه؟».

«كيف بهذه السهولة فتح لنا هذا الصول باب السجن؟».

كانت أفكاره كدق الطبل رغم عدم انتباهه!

الآن يشعر بهذا الألم المصاحب لرأس (الشاعر) التي انغرست في بطنه وهو يقفز عليه!

❀❀❀

(7)

حدّث الكابتن (بارد) نفسه:

– «اسم على مسمى».

البارجة (ديستروير) تنطلق في المحيط محطمة رقائق الثلج الطافية على سطح المياه في طليعة الأسطول.

طيلة شهر ونصف – مدة إبحار الأسطول حتى الآن – يظل الكابتن (بارد) واقفًا في مقدمة البارجة ناظرًا للأفق غير متأثر بالرياح القارسة حتى بدا لطاقمه أنه قُد من صخر..

كان محل إعجابهم، وكان هو يعرف ويلاحظ تلك النظرات، ويتعمد الظهور بهذا المظهر أمامهم مهما شعر بآلام جسده.

منذ أن عرف الكابتن (آهاب) في الملحمة الشهيرة موبي ديك وهو يرى أن هذه الرواية قد رسمت صفات القائد كأفضل ما يكون؛ القائد الذي يتبعه طاقمه إلى قلب الموت ذاته إن تطلب الأمر.

إلى المجهول مهما غمض..

و أي مجهول أشد من تلك الصحراء الثلجية التي يشقونها!

في عنابر النوم بدأت تنتشر تعجبات الطاقم.

«نازي هنا! في القطب!!».

«هل سمعتم عن الأطباق الطائرة تلك؟».

«أخي في سلاح الطيران وأخبرني عن جسم كشكل الجرس هاجم طائرته!».

«إنك تخرف!».

«لا بل المخرف أخوه!».

كان الكابتن يسمع وتصله همساتهم و يصلي أن يجد عند أجهزته المزروعة في وسط الثلج بداية الخيط، لا يتوقع بالطبع أن يجد طبقًا طائرًا نازيًا على شكل جرس بجوار الأجهزة وإلا لكان فخًا.

توتر جسده مع الفكرة..

في أقصى الأرض، ليس هذا مكانًا مناسبًا لفخ لا مهرب منه إلا إلى الجليد.

هدّأ من روعه قليلا بُعد هذا الاحتمال، من ذا الذي يتوقع وجود مثل هذه الأجهزة المزروعة في قلب الجليد، في واقع الأمر، المغروسة في قلب الجليد على عمق عشرة أمتار.

– «عشرين كيلومترًا يا سيدي».

جاءه صوت مساعده مشتتًا لأفكاره.

«طلبت منا إخبارك قبل الوصول بوقت كاف».

كان الليل قد أرخى سدوله، ففكر الكابتن «ليس الوقت المناسب لأي مخاطرة» ثم ألقى أوامره لمساعده:

– «سنبيت هنا.. أريد صمتًا تامًّا».

و على إثر أوامره انطفأت أنوار وأجهزة الأسطول وعلم الجميع أن الصباح حتمًا سيحمل لهم الكثير.

❀ ❀ ❀

(8)

إحساس العجز هذا الذي يراود من يكون في قلب (اللا شيء) وبعضهم يطارده!

تنظر ليمينك.. لا مفر.

تنظر لشمالك.. لا مفر.

خلفك.. لا مفر.

أمامك.. هم أصلًا يطلبونك من الأمام!

نظروا لبعضهم البعض.

«ما هذا الذي فعلناه؟».

«من هؤلاء؟».

«أين نذهب؟».

«أين نحن؟».

«هل تذكرون كلام الشيخ؟».

«نعم.. إنها الحقيقة.. هذا العراك هو ما تخفيه صدورنا».

من جديد ينظرون لبعضهم البعض.. (الحديدي) و(الشاعر) و(بيدو).

لسبب ما لا تقدر عقولهم على التركيز.

الأفكار لا تتجاور في عقولهم، بل تتصارع.

همس (بيدو):

– «دعونا نصارح أنفسنا... ما بداخلنا ليس مثل ما نظهر».

أجابه (الحديدي):

– «حتى أنت يا (بيدو) خانتك نفسك هنا.. أين رومانسيتك هذه؟. لا أجد قلوبًا تمطر علينا، والسماء ليست وردية اللون».

قالها وهو يفرد ذراعيه حوله.

ضحكة تفلتت شقت الصمت.

تبعتها ضحكات.

واحدة بعد واحدة بعد أخرى.

تكسر الصمت وانفجروا بالضحك الهستيري حتى إنهم لم يلحظوا أن الطلب أدركهم وأنهم – يتمرغون أرضًا من الضحك – في وسط دائرة من طالبيهم!

❀ ❀ ❀

(9)

قال الكابتن (بارد) وهو يفرك مفاصله المتألمة من إثر قبضة هالة (سكر) الحمراء:

–«أكيد أنك سمعت عن حالات اختفاءات لطواقم البحارة من سفن مختلفة عبرت مثلث برمودا، أو أخرى عبرت مثلث فرموزا عند أمريكا اللاتينية.. حسنّ هذه كانت إحداها.. نعم لم تحدث في مثلث برمودا – وإن كانت الأخبار الرسمية أفادت هذا – لكنها كانت تحمل نفس التفاصيل».

كان صوت الكابتن (بارد) الآن أكثر وضوحًا بعد أن خفف (سكر) قبضته عليه..

الهالة قلّ توهجها، وحالة التحجر تلك قد لانت من على جسد الكابتن، كل ما فعله (سكر) أن تخيل الكابتن مقيدًا في الحبال بدلًا من تخيله متحجرًا!

استمر الكابتن في السرد:

– «استيقظت فجر اليوم التالي لمبيتنا على أمرين؛ الصمت والضباب.. كلاهما أكثف من الآخر.. ضباب يشوش على رؤيتي وصمت يشوش على سمعي – إن كان لهذا معنى.. من عاش حياته مثلي في جبهات القتال يفهم ما أقوله لك.. من بات لياليه على أصوات المدافع والطلقات،

أو أصوات الأجهزة والمعدات حتى تعتاد أذناه هذا الضجيج يشعر حتمًا بضجيج للصمت.. هكذا كان الأمر، استيقظت على ضجيج الصمت، وعلى ضبابية الرؤية.. تذكر، نحن في بارجة حربية وسط أسطول مكون من عشر بوارج، ولا تخلو لحظة حتمًا من طنين جهاز، أو من أوامر متبادلة عبر لاسلكي، أو خطوات طاقم الحراسة في مختلف أرجاء السفينة.

تجولت في السفينة فاكتشفت أني – كما توقعت – وحدي تمامًا، لا أثر لمخلوق أو حتى لجثة واحد منهم!

البوارج الأخرى شكت من نفس الأمر أيضًا.

تفحصتها بارجة بارجة بقارب صغير.

لا أحد.

لا جهاز يعمل.

لا أثر لعنف.

لا بقعة دم.

لا جثة طافية على صفحة المياه.

الكون فجأة انشق وابتلع ما لا يقل عن ألفين من البحارة المقاتلين!

هل يمكنك أن تتخيل موقفي وسط هذا الخواء المفاجئ؟!

الأكثر من هذا هل يمكنك أن تتخيل إحساسي وقاربي الصغير يسير رغمًا عن إرادتي تجاه الشمال في قلب الضباب؟!».

❀ ❀ ❀

(10)

الصورة كانت هكذا، (الحديدي) و(الشاعر) و(بيدو) يستردون أنفاسهم مع اندهاش يكاد يمزق صدورهم من صدمة ضحكهم في هذا الموقف بالذات؛ دائرة من جنود ترتدي زيًا مموهًا من اللون البني والأبيض تحيط بهم، يمسكون أسلحة بدائية مختلفة، هذا يمسك رمحًا والآخر سيفًا!!

دائرة من جنود راكبة على طوافات دائرية الشكل– أقرب لقرص حجري طائر–تطفو بهم على ارتفاع يسير من الأرض دون أدنى صوت!!

الناظر للوجوه يعرف يقينًا أنها ليست وجوهًا بدائية كتلك الأسلحة التي يحملونها، أما الطوافات التي يركبونها فتبدو غاية في البدائية رغم ارتفاعها عن الأرض!

«لحسن الحظ أننا رصدناكم قبل أصدقائنا الزواحف!».

«أعتقد أن (السيد) سيحتاج للحديث معكم».

كانوا يتحدثون بالعربية، ثم دار حوار بينهم بلغة أخرى قريبة من العربية شعروا بالألفة نحوها وإن لم يفهموا منها حرفًا!!

نظر إليهم أحد هؤلاء - كان في مقدمة الطوف ويبدو كقائد للمجموعة تلك - طالبًا منهم الصعود:

-«كل أسئلتكم ستجدون لها إجابة فيما بعد.. الآن نحتاج للاختفاء قبل أن تجدنا بعض (الألسن الطويلة)».

بعد بضع ساعات من الطواف السلس وصلوا جميعًا لمشارف جبل مهيب المنظر يبدو ممتدًا إلى ما لا نهاية.

كان الجبل يقطع الرؤية من الشرق للغرب تمامًا كسور يحيط الوجود.

- «جبل مقيطام الحكيم» هكذا أخبرهم أحد الجنود - غريبي الشكل ثم أكمل وهو يشير إلى كهف على ارتفاع عشرات الأمتار في وسط الجبل يزين مدخله قوس حجري:

- «وهناك مقرنا».

نظر الجميع إلى حيث أشار، ولفت نظرهم مسجد عجيب محفور فوق مدخل الكهف على الجزء الأخير من صخرة عظيمة تظلل الكهف!

بدا المسجد في نظرهم من صنع الطبيعة وليس محفورًا بيد صانع.

نبههم قائد الطوافة بأن يتمسكوا جيدًا قبل أن يسير بها ناحية الجبل حتى باتت على وشك الاصطدام به وقبل بضعة سنتيمترات - وكأنها تسير على قضيب خفي - صعدت مقدمة المركبة بانسيابية شديدة في وضع رأسي حتى مدخل الكهف، ولولا أن الجنود أمسكوهم لسقطوا جميعًا من فوق الطوافة رغم التنبيه السابق.

قال أحد الجنود بعد أن رأى الدهشة على وجوههم:

- «تكنولوجيا الجاذبية المضادة ليست متقدمة بأي حال من الأحوال لو حسبناها بعدد سنين عالمكم.

التاريخ لديكم يقول إن الفراعنة أول من استخدمها، بل ورسموها على جدرانهم.. ألم تروها من قبل؟».



❀ ❀ ❀

(11)

«نعم يا صديقي.. حتمًا هناك أخبار.. منذ متى لم نشهد هذا التحرك!!

منذ متى وتلك السحالي تخاطر بالاقتراب هكذا فتخسر وسيطها الآمن!

لولا وجودك يا صديقي لأخذونا على حين غرة..

ربما حتى قبل أن تنتبه الصحراء!»

❀ ❀ ❀

(12)

كم من الوقت ظلت أفواههم فاغرة وهم يتنقلون بداخل المكان!

الحوائط القديمة داخل الكهف تشي بصنعة صانع رغمًا عن تداخلها مع الطبيعة الجبلية فلا تقدر أن تفرق بينهما!

الجنود تركوهم ودهشتهم..

ربما ضحكة ساخرة من هذا أو تعليق خافت من ذاك..

لكن شيئًا منها حتمًا لم يصل لأسماعهم وعيونهم وعقولهم مشغولة بالتفقد!

ما ظهر مثل كهف من الخارج كشف عن بنيان عتيق من الداخل!!

مدخل الكهف يبدأ بممر آخذ في الارتفاع حتى يصل لمصطبة في المواجهة يقف عليها بعض الحرس.. على جانبي المصطبة ممران، سلك بهم الجنود الممر الأيسر وتركوا الأيمن..

كان الممر يرتفع بهم كل بضع خطوات وحوائطه تكتم عنهم الصوت والضوء فشعروا لأول وهلة بانعدام الوزن نتيجة لفقدان حاستي السمع والبصر المفاجئ!

بعد عشـرات الأمتار يميل الممر إلى اليمين وهـو مستمر في الارتفاع ثم تهبـط على السائرين بقعـة ضوء من السقـف آتية من قلـب السماء تكاد تعمي من يتحرك بغير انتباه..

بعد هذا تكون الرؤية أكثر وضوحًا حتى يصـل الجميع إلى قاعة هائلة على اليسـار لا سقف لها إلا السمـاء تساءلوا مع رؤيتها (هـل يسيرون في قلب فوهة بركان؟!).

في منتصـف القاعة مصطبة حجريـة – دائرية– تحيـط بمائدة حجرية مجوفة غريبة الشكل، وفـي الحوائط الأربعة أربعة أبـواب عتيقة ضخمة كما هو كل شيء حولهم!

الحوائط الجانبية بدت لهـم مبنية بداخل أحجار الجبـل فلم يعرفوا متى تبدأ الصناعة اليدوية ومتى تبدأ الأحجار!

تداخلت أصواتهم الثلاثة في وقت واحد:

«أين نحن؟».

قال قائد المجموعة:

– «كل الأسئلة ستجاب فيما بعد».

صمتوا قليلاً مع إجابة القائد ثم همهم (الشاعر) كأنما يحدث نفسه:

– «ولكن.. أكاد أقسم إني رأيت هذا المكان من قبل!»..

التفت رفيقاه إليه بذهول وهو يكمل:

– «منذ دخلنا هنا وأنـا أشعر أني رأيت المكان من قبـل؛ المسجد فوق الصخرة، الممر المظلم الذي سرنا فيه، هـذه القاعة... جزء من داخلي يقول: إني رأيت كل هذا من قبل!».

نظر إليه القائد برهـة ثم تبادل النظـر مع مجموعة مـن الجنود وكأنه يشاورهم قبل أن يقول:

– «فليكن.. هذه صدفة لم نكن نتوقعهـا.. ومع ذلك فلا توجد إجابات قبل عودة (السيد)..».

ثم نظر إلى السماء وهو يكمل:

«هناك عاصفة تولد.. أعتقد أن وصوله اقترب».

سأل (الحديدي) بصبـر مكتوم تخالطه أنفاس مضطربـة كأنما يركض منذ ساعة:

– «(السيد)!!! (سيد) من؟؟؟».

– «ستعرف حينمـا يأتي.. (للسيـد) طريقته المميزة فـي الإعلان عن نفسه!».

ثم تبادل مع الجنود بعض الضحكات المتحفظة!

❀ ❀ ❀

(13)

شعر الكابتن (بارد) بقيود (سكر) ترتخـي أكثر وأكثر وهو يستطرد في الكلام..

كان قـد ازداد خبرة بردود فعـل (سكر) غيـر المتوقعة، ومـن ثمَّ لم يحاول أن يظهر أي بوادر هروب أو مقاومة..

لاحظ الكابتـن الآن أن (سكر) أكثـر استرخاء، عقله على مـا يبدو بدأ يتقبل حدود قدراتـه - أو يستوعبها - وهذا دفعه لإنهـاء حكايته في أسرع وقت..

يحتاج للتحرك هو و(سكر) بأقصى سرعة!

قال (بارد):

-«بعد محاولات عديـدة للتحكم في القارب أدركـت عدم جدوى ما أفعله؛ أيًا ما كان الذي يجذبني فله اليد العليا والبحر المتجمد من حولي يرد أي أفكار تأتيني للهرب.. استمر القارب فـي المسير ربما لثلاث أو أربع ساعات كدت فيهما أتجمد تمامًا، لولا - لدهشتي- شعور بالهواء الدافئ بدأ يأتيني من قلب الضباب!

تخيل معي تيار هواء دافئ في قلب المحيط المتجمد، أي إحساس هذا!!

لبرهة عجز عقلي عن استيعاب الإحساس بالبرودة القارصة مع دفء يصاحبه!

وبعد دقائق كان إحساس البرودة قد انتهى تمامًا ولم يبق سوى الدفء حتى احتجت للتخفف من ملابسي! لاحظت أن القـارب أبطأ وهو ينحرف قليلا ناحيـة اليمين، ثم توقف تمامًا بجـوار سور عال لم أتبينـه في البداية بسبب الضباب..

كان الضبـاب كثيفًا جـدًا من جراء تفاعـل الهواء الساخـن مع المحيط المتجمد..

وبعد أن اعتادت عينـي الضباب لمحت سلَّمًا صاعـدًا بجواري فتسلقته دونما تردد..

كانـت الأسئلة في ذهنـي أقوى مـن أي مقاومة - عقليـة أو منطقية، برغم هذا لا تنسَ - من فضلـك - تدريبي وانضباطي، فحتـى بدون أي بوصلة أو إحساس بالاتجاه لم يفتني أن أعد درجات السلم وأنا أصعد؛ مائة وأربعين درجة بالضبط!

أعلى السور وجدت طريقًا ينفصل ليدور حـول فوهة عريضة جدًا لا يقل عرضها بـأي حال من الأحـوال عن مائـة متر ومنها يخـرج الهواء الدافئ الذي لفح وجهـي منذ قليل، ويلتقي الطريق بعـد الفوهة في منحنى هابط عجزت عيني من زاويتي عند السور أن تبصره..

احتاج منـي الوصول إلى نقطـة الالتقاء بين المنحنيين جهـدًا لم أتوقعه وقتها، شعرت كأن الجاذبية فـي تلك المنطقة أعلى مما اعتادته قدماي، أو أن قواي قد ضعفـت فجأة - ما جعلنـي أجنّب الحل الأخيـر أن عقلي كان صافيًا غير مرهق..

كما قلت لـك كان الطريـق يهبـط لأسفل ولكـن بشكل دائـري يحيط بالأسطوانـة الضخمة التي يصعد منها هـذا الهواء الدافئ.. لـك أن تسأل كيف يدور طريق أسفل مستوى سطح المحيط!!

استمررت في النزول حتى لاحظـت أن معدل الانحناء يقل ويتسع قطر الدائرة رويدًا رويدًا.. أخذ مني هذا فيمـا أحسب فوق ثلاث ساعات حتى أصل لقاع الأسطوانة.. عند القاع اختفى الضباب تمامًا ليظهر أمامي سهل منبسط بين جبلين يبدءان من عند الأسطوانة..

الآن تخيل معي هذا الذي أنا فيه..

أنا أحكي لك ولا تنتبه أن البرودة قـد انتهت، وأننا تحت مستوى سطح المحيط المتجمد بمئات الأمتار..!!

بل زد على تعجبك تعجبًـا حينما تعرف أني وجـدت فوجًا من بشريين فائقي الجمال يلتقون بي عند منتصف السهل بالضبط!

كان هذا أول لقاء لي مع (الشماليين)!!».

و قبل أن يعقب (سكـر) دهشًا تردد فجـأة في المـكان ضوضاء شديدة قادمة من آخر النفق الذي قطعوه منذ قليل فالتفت مذعورًا ناحية الصوت، وكعادته كان ذعره متجسدًا..

انتشرت في الجو بشـكل مفاجئ رائحة حارة، ومـلأت هالته الحمراء المكان، في الثانية التي تليها تحركت الهالـة بأقصى سرعة ناحية الصوت ثم........

ثم زادت الضوضاء حينما امتزجت بالألم الشنيع حتى اختفت تمامًا!

صمتا لدقائق يستمعان ثم قال الكابتن (بارد) وهو يبتسم:

– «أحسنت.. ها أنت قد بدأت أولـى عملياتك.. أقول لك الحقيقة – ما كنت أتخيل أن قوتك طاغية بهذا الشكل..فريـق بأكمله من الزواحف في ثانية واحدة فقط!!».

– «زواحف!! !».

انفجر الكابتن (بارد) ضاحكًا:

– «نعم.. نعم هذا كثير عليك، أنا أعلم هذا، لكـن دعني أيضًا أخبرك أن أخبارك الآن تطوف حتمًا الصحراء بأكملها!».

من جديد تساءل (سكر):

– «الصحراء!!!».

– «يمكننـي أن أوضح لك قليلاً فقد كسبت لنا بعض الوقت.. حتى الآن أنت تعرفت علـى الرماديين.. هنـاك أيضًا الشماليـون، هذا اسمهم بالمناسبة وليس نسبة لمكانهم.. هكذا يسمـون أنفسهم في أدبياتهم.. لعلك تعرف هذا لو كنت قارئًا جيدًا!».

من جديد تجسدت دهشـة (سكر)، لكنه هذه المرة لـم ينبس ببنت شفة، كثرت عليه العجائب حتى قرر ألا يسأل..

أكمل الكابتن:

– «أنت تعرف هذا أو سمعت عنه بالتأكيـد؛ لأن وجودهم كان ظاهرًا في العديد من الأدبيـات لدينا.. في زماني كان هنـاك ذلك الكاتب الشاب الذي ألف ملحمة أسماها ملك الخواتـم.. أقرأتها؟! في هذه الملحمة أفصح

الكاتب عـن وجودهـم، ولم يكن هـذا خيالًا محضًا بل له جـذور حقيقية استقاها من أساطير إسكندنافية قديمة..

في الواقع كان لابد من ظهورهم بكثرة فـي الأدب الإنساني بأكثر من اسم لكونهم أكثر الأجناس ظهورًا معنا؛ أصحاب الدماء الزرقاء..

الآريون – الذين ادعى (هتلر) الانتساب إليهم..

الشماليون..

و النورديون في بعض الأساطير الأخرى..

ظهورهم الأسطوري كان حقيقيًا.. فقط العقل البشـري وقتها لم يقدر على استيعـاب جمالهم الفائـق فوضعهم في مصـاف الآلهة، كذا لـم يستوعب تقدمهم الهائل فازداد اقتناعًا بألوهيتهم أو أنهم على أقل تقدير من الملائكة!».

ثم سكت قليلًا ليعطي (سكر) فرصة استيعاب ما قال قبل أن يكمل:

– «على كل حال... تسمرت مكانـي وقتها ولم أتحرك.. ضع نفسك مكاني؛ أنا رجل حربي.. في أرض غريبة لا أعرف بعد معادية أم لا.. بـلا أي سـلاح.. وبالتأكيـد زادت دهشتي حيـن كلموني بلغـة إنجليزية واضحة مشوبة بلكنـة ألمانية.. قل لي أنت: هل كنـت تتوقع ذلك في مثل هذا المكان؟!»

❀ ❀ ❀

(14)

توقع الثلاثة عودة سريعـة للـ(سيد) هـذا يعرفون بها إجابـات أسئلتهم الحائرة..

أين هم؟

ماذا حدث لهم؟

ماذا حدث لـ (سكر)؟

من هؤلاء الجنود؟

من (طويلو الألسن) هؤلاء؟

و عشرات الأسئلة الأخرى من الطبيعي أن تغـرق عقل أي إنسان في موقفهم..

مع كل هذه الأسئلة المنطقية زاد من ضيقهم صمت مضيفيهم التام تجاه أي استفسار، الإجابة الوحيدة التـي حصلوا عليها كانت من قائد المجموعة (الذي تأكدوا من قيادته حين رأوا ائتمار الناس بكلامه):

– «يا أصدقائي نحن هنا لا نتكلم أبدًا إلا بحساب وفي أضيق الحدود، لا نفضل (سكب) أسئلتكم لغير (السيد)!».

لاحظوا جميعًا وهو يتكلم إشارته لرأسه عند ذكر (سكب الأسئلة) كأن شيئًا يسيل منها!

❀❀❀

مرَّ فوق الأسبوع ولما يأت بعد (السيد) رغم قرب هبوب عاصفة كما قيل لهم!

سلوك الناس هو نفسه لم يتغير لكنهم أدركوا بوضوح أن الكلام بالفعل قليل في هذا المكان؛ لم يكن موقفًا تجاههم بقدر كونه سلوكًا عامًّا..

كذلك أدركوا أن المكان متاح لهم تمامًا وبلا قيود، يتجولون فيه أنّى شاءوا، وكان في هذا تسليتهم وقضاء لوقتهم بدلًا من إصابتهم بالجنون جراء الصمت الصارخ هذا!

القاعة الرئيسية التي تجمعوا فيها أول مرة دائرية الشكل تحيط بها أربعة أبواب رئيسية ضخمة لا يقل ارتفاع أي منها عن عشرة أمتار..

الباب الرئيسي الذي دخلوا منه لحظة مجيئهم مفتوح أغلب الوقت..

الباب الأيمن يؤدي إلى ممر – حجري ككل شيء في الكهف– يهبط ناحية اليمين، في نهايته غرفة واسعة توجد بها العشرات من الأَسِرَّة المتراصة بجوار بعضها، ويمر تحت كل سرير مجرى مائي صغير يخرج من فتحة صغيرة أسفل الحائط المقابل للباب ويدور في أركان الحجرة كلها ثم يعود من حيث بدأ ليدخل في فتحة أخرى مجاورة للأولى!

منقوش على باب الغرفة بتلك اللغة الشبيهة بالعربية (راحة المتعبين)!

لوهلة قرءوا النقش ثم انتبهوا فجأة أنهم فهموا تلك اللغة دون تعليم من أحد!!

أضافوا هذا الأمر لقائمة أسئلتهم (للسيد)!

الباب الأيسر للقاعة الرئيسية يفتح على ممر آخر يهبط – كمثيله الأيمن – للأسفل، ولكن ناحية اليسار، غير أنه يستمر في النزول حتى يظلم المكان تمامًا، فعادوا أدراجهم على الفور خوفًا من الظلام الذي تسلل حتى لعظامهم!!

الباب الذي في واجهة القاعة الرئيسية مغلق على الدوام بجانبه نافذة صغيرة شاهدوا من خلالها –بصعوبة– ملامح غرفة كبيرة بعرض القاعة الرئيسية مليئة بالنقوش المضيئة في حوائطها وسقفها، ويبرز من منتصفها ضريح ضخم للغاية، ومن يمين الغرفة سلم صاعد لأعلى – صَعُب من زاويتهم تبين منتهاه..

منتصف القاعة كان مكان التجمع اليومي حيث مائدة مستديرة هائلة الحجم باطنها مجوف يلتف الجالسون حولها، وكانت دهشتهم عظيمة حين رأوا باطن المائدة المجوف يمتلئ في أوقات محددة أثناء اليوم بالماء فتصعد مع صعود الماء صواني طعام خشبية – الذي لم يتغير كثيرًا عن خبز الشعير وخضراوات أخرى جافة عجزوا عن معرفتها أو تمييز طعمها!

مكان المبيت كان في غرفة صغيرة قادوهم إليها أول يوم حيث رجعوا من الممر الرئيسي حتى باب الكهف، وانعطفوا هذه المرة إلى الممر أيمن المصطبة الحجرية ومنه لممر دائري يرتفع – على غير العادة – لأعلى، فخمنوا أنه يصعد بهم لأعلى الجبل..

في الأعلى يزداد الممر اتساعًا رويدًا رويدًا حتـى يصير عرضه قريبًا من عشرين مترًا ويصبـح الممر بعدهـا مستقيمًا تنتشر علـى جانبيه غرف صغيرة للمبيت..

❀ ❀ ❀

بعد عشرة أيام جـاء (السيد) وكان مجيئه -بالضبـط كما قيل لهم - لا يمكن تجاهله!!

استيقظوا فـي منتصف الليـل على زئيـر رهيب يرج المـكان.. كان الجبل يتجاوب مع الزئير بشكل مختلف تمامًا عـن صدى الصوت العادي - كأنه يتجاوب معه بزئير حجري مكتوم!

حينما خرجوا مـن غرفة مبيتهـم وجدوا الجنـود قد ارتـدوا ملابسهم وأسرعوا للقاء (السيد) فتبعوهم إلى القاعة الرئيسية، وهناك في المنتصف كان (السيد) جالسًا على رأس المائدة وبجواره أسد هائل الحجم، ما زال زئيره يرج المكان!

❀ ❀ ❀

(15)

ليس (تيـم فرانكليـن) ممن يفوتهـم تلك النظـرة المتوتـرة على وجه مساعده وهو يشير إليه من خلف الحائط الزجاجي لحجرة الاجتماعات..

و ليس هو كذلـك من يفوتـه أن مساعده لـم يكن ليقوم بهـذا تحت أي ظرف من الظروف في اجتماع لقيادات جهاز الاستخبارات الأمريكية إلا لـو كان الأمـر طارئًـا وعاجـلا فـي أعلـى درجـات الخطـورة.. بروتوكول التنظيم الداخلي لا يلجأ لتمرير الاتصالات أو المعلومات يدًا بيد أو مواجهة إلا في أقصى حالات السرعة والخطورة..

هناك مشكلة واحدة فقـط، مثل تلك الحـالات لا يمكن أن تمـر إليه وحده دون باقـي القيـادات الجالسة أمامـه تناقش القضيـة المطروحة مـن الرئيس الأمريكي فـي آخر خطاب، ولا يعني هـدوء تلك القيادات إلا أمـرًا واحدًا؛ لا أحد غيره يفترض أن يعلم، ولا يعني هـذا أيضًا إلا أمرًا واحـدًا انتظره طيلة سنين خدمته، وانتظـره من قبله سلفـه وأسلاف سابقون عـد منهم ثلاثة حتى الآن.. لا يعني هذا إلا حدوث اتصال!

بعد بضع دقائـق كان (تيم) ومساعده فـي غرفته الخاصـة أمام شاشة العرض يستمعان لرسالة من (الشماليين)!

❀ ❀ ❀

لم يقل (الشمالي) إلا جملة واحدة بلهجته المشوبة بلكنة ألمانية وهو ينظر إلى تيم ومساعده:

«أظن أنني طلبت مقابلة القائد.. أليس كذلك؟».

صوته المتغطرس ونظرته المهددة لم يدعا لهما سبيلًا إلا الاتصال العاجل بالرئيس الأمريكي في وسط المؤتمر الصحفي الذي عقده منذ دقائق، ليس لهما قبلٌ بإغضاب الشماليين..

الآن على (تيم) إحضار الرئيس بنفسه ويشرح له في أقل من عشر دقائق - مدة الوصول من قاعة المؤتمرات إلى غرفة اجتماعات سرية بمبنى المخابرات - كل ما خفي عنه!

❀ ❀ ❀

(16)

حضور (السيد) كان طاغيًا، برغم اللثام الذي يحيط وجهه ولا يكشف إلا عينه وقليلًا من خده..

كان من الصعب أن تتلاقى عينه وعين أي أحد إلا أسرتها، لاحظ (الشاعر) ذلك من أول وهلة، وكذا لاحظ أن (الحديدي) قد زاد توتره بشكل ملحوظ، في حين كان (بيدو) مأخوذًا بما يحدث حوله فلم ينتبه لما فيه أيهما..

ورغم أن وجودهم يفترض به مفاجأة (السيد) فإنه لم يقطع اجتماعه برجاله، بل حتى لم يلتفت إليهم عند دخولهم للقاعة الرئيسية..

كان هو جالسًا على رأس المائدة وذاك الأسد بجواره..

الكل صامت في انتظار كلام (السيد) وما جاء به من أخبار.. توقع الثلاثة أي شيء إلا أن يظل الجمع في صمت لمدة جاوزت الساعة!!

(السيد)على جلسته مطرق رأسه والباقي على نفس الحال، حتى الأسد الجالس بجواره لزم الصمت هو الآخر..

الكون من حولهم اكتسى بالصمت.. شعروا كأن الجبل يتجاوب مع الصمت وكأن حوائط القاعة الرئيسية قد ضاقت قليلًا لتحتوي الصمت الذي حل!

و أخيرًا بعد مرور الساعة رفع (السيد) رأسه ثم نظر للقائد وقال بصوت خافت مبحوح وهو يشير إلى الباب الخلفي للقاعة المواجه للبوابة الرئيسية:

– «(برنابا).. تعال معي».

أضيئت بضعة أضواء خافتة في القاعة خلف الباب شاهدوها من النافذة الصغيرة، وفيما عدا ذلك لم ينبس أحد ببنت شفة حتى مضت ساعة أخرى أو أكثر ثم خرج القائد – الذي عرفوا أن اسمه (برنابا) – مغادرًا دون أن ينظر إلى أحد من سرعة مغادرته..

لاحظوا نظرات القلق التي ترددت في القاعة من باقي الرجال لمرأى رحيل (برنابا) السريع ووصل إلى مسامعهم همس أحدهم:

– «هل يعقل هذا؟ مهمة الآن والعاصفة على الأبواب!».

دخل أحد الجنود الحجرة وبعد دقائق قليلة من التوتر جاء يطلبهم:

– «(السيد) في انتظاركم».

و قبل أن يتحرك أحدهم من مجلسه سبقهم الأسد إلى الغرفة!

❀ ❀ ❀

كان طبيعيًا إذن أن يتأخر دخولهم لتلك القاعة! هي قاعة – رغم الأنوار الموقدة يغلب عليها الظلام، لا يعرفون حدودها بدقة وبداخلها أسد رجّ زئيره جبلًا بحجم جبل مقيطام!

سبق (الحديدي) الثلاثة بعد أن تغلب فضوله على خوفه ثم تبعه (الشاعر) و(بيدو) بتردد..

أفسح لهم الرجال الطريق وهم يدخلون..

البعض ربَّت على كتف (الشاعر) أو (بيدو) مشجعًا ومطمئنًا، والبعض اكتفى بالنظر الصامت إليهم..

بعد دقيقة من دخولهم بدأت الأضواء الخافتة توضح معالم القاعة شيئًا فشيئًا..

في وسط القاعة ضريح ضخم جدًّا بمقاييس زمننا، بجواره مصطبة يفترش الأسد عليها ذراعيه بمنتهى الهدوء والسكينة مغمضًا عينيه..

في يمين القاعة مقعد حجري محفور في الجدران يجلس عليه (السيد)..

سقف القاعة ممتلئ بالتعشيقات الخشبية العتيقة تدلت منها بعض الثريات التي جاء منها الضوء الخافت – تساءل (بيدو) في سره مع رؤيتها كيف أضيئت من هذا الارتفاع الشاهق؟

لبضع دقائق ظل الثلاثة يطوفون بنظرهم في أرجاء القاعة بعدها انتبهوا أن بجوار المقعد الحجري للسيد يوجد ذلك السلم الضيق الذي شاهدوه من النافذة الصغيرة.. تصميمه ظهر لهم كمثل الذي نزلوا عليه من عند الشيخ (سيد)..

دوى صوت (السيد) المبحوح في القاعة:

– «أسئلة كثيرة ستجاب هنا»..

وبدا أن الحوائط تتجاوب مع صوته – كما فعلت مع زئير الأسد.. أكمل (السيد):

– «أسئلة منكم وأسئلة مني» .

كاد (الحديدي) يندفع في الكلام لولا أن (السيد) أوقفه بإشارة من يده لمحوها بصعوبة في الإضاءة الخافتة :

– «و لكن . . . . هناك قاعدة للكلام هنا» .

ثم صمت قليلًا ليتأكد من متابعتهم له قبل أن يكمل: «الكلام هنا بحساب . . لا تنطقوا بكلمة واحدة زائدة . . أفضل لكم أن تتدربوا على هذا هنا قبل أن تخرجوا للصحراء!» .

سكت ثانية ثم أضاف – بعد دقيقة سمعوا فيها تنفسه بوضوح وكأنه بذل مجهودًا كبيرًا في الكلام :

– «أولا أسمع منكم . . أريد كل تفصيلة مهما كانت صغيرة . . بعد هذا أجيب عن أسئلتكم» .

وكأن الأسد شعر بتوتر (السيد) الذي يحاول إخفاءه فرفع رأسه وزأر بصوت خفيض مكتوم وقف له شعر الثلاثة . . نظروا إليه بتوتر وهلع حاولوا إخفاءه، ولا إراديًا تراجع (الشاعر) و(بيدو) قليلًا يحتميان خلف جسد (الحديدي) الضخم الذي لم يكن حاله أفضل منهما إطلاقًا!

«لا تقلقوا . . إنه مجرد كلب من كلاب الله . . . (أسامة) أسد له نفحاته!» .

نظروا إليه مترددين قليلًا ثم غلب – من جديد – فضولهم خوفهم، ورغم الخوف الظاهر ورغم أن الأسد لم يزل يزوم ورغم التحذير – من سكب الكلام – انسكب الكلام من أفواههم انسكابًا!

❀ ❀ ❀

(17)

أخرج الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن محمد بن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ركبتُ البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبْتُ لوحًا من ألواحها، فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إليّ يريدني، فقلت: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطأطأ رأسه وأقبل إليّ، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وهمهم فظننت أنه يودعني، فكان ذلك آخر عهدي به).



(18)

حينما ختم (الشاعر) حكايتهم – التي تبادلوا دور الراوي فيها – منذ اجتماعهم في قسم الشرطة حتى نزولهم من الفتحة أسفل الضريح – كان ينهج بشدة وكذا رأى رفيقيه..

شعروا بنبض قلوبهم يزيد وكأنهم يصعدون سلمًا لا نهاية لارتفاعه، وحين اضطر (الشاعر) أن يستلقي على ظهره ليسترد أنفاسه بعدما بدأ وعيه يغيب لاحظ أن رفيقيه قد لحقا به أرضًا..

قال (السيد) بصوته المبحوح:

– «لا بأس.. لا بأس.. هذا أول درس عملي لكم.. الكلام والانفعال هنا له ثمنه، لذا طلب (برنابا) من الجميع الصمت أثناء استضافتكم.. على كل حال، بضع دقائق وسترجع أحوالكم لنصابها».

في تلك الأثناء دخل (برنابا) مسرعًا من باب القاعة..

ذهابه وعودته لم يأخذا الوقت الكافي مما ظهر على وجه (السيد) سريعًا ثم – كالعادة – اختفى الانفعال..

كان يلهث بشدة وهو يقول بصوت مقطوع:

– «سيدي.. للأسف لم أستطع بلوغ الطوارق، العاصفة على وشك البدء».

كان (بيدو) أول من اعتدل من الثلاثة وهو يسأل بصوت مندهش:

– «الطوارق!!! هنا..!!! أين نحن بالضبط؟».

التفت إليهم (برنابا) لوهلة كأنه يراهم لأول مرة، ثم أدرك مع الوقت أنه قد قاطع اجتماعهم مع (السيد) فنظر إليه معتذرًا لكن (السيد) أشار إليه ألا يهتم وعقب وهو ينظر للثلاثة:

–«يمكنكم القيام الآن.. سينضبط نفسكم أكثر هكذا.. أعتقد أننا بحاجة للشرح لكم؛ الشرح السريع في الواقع لأننا على وشك الرحيل!».

مع اعتدالهم وانضباط نفسهم بالفعل استطرد (السيد) وهو ينظر (للشاعر):

– «في البداية نعم يا (شاعر).. أنت محق في إحساسك بأنك رأيت المكان من قبل كما سمع منك الرجال».

ثم قادهم خارج القاعة وهو يكمل:

– «التشابه الذي لفت نظرك يا (شاعر) بدأ من خارج الجبل.. ربما منذ وقعت عيناك عليه.. أليس كذلك؟» أومأ (الشاعر) برأسه و(السيد) يكمل:

– «ذلك لأن جبل مقيطام الحكيم (ظاهره) عندكم بالفعل.. فقط أنتم تسمونه (جبل المقطم).. أما أنا فلابد – ومما سمعته من حكايتكم– أنكم شاهدتم صورتي وأنا صغير لدى أبي..ترى هل لاحظ أيكم هذا؟».

هتف (الحديدي) مندهشًا:

«أنت ابن الشيخ (سيد)!».

هز (السيد) رأسه موافقًا وهو يبتسم:

– «نعم.. ورغم أن وجودي هنا لم يزد على عشر سنوات، فإن غيابي عن أبي ربما زاد على الخمسين تزيد أو تنقص قليلاً.. هنا في الصحراء البيضاء – كما نطلق عليها– للزمان حسابات مختلفة.. قل لي يا حديدي هل شاهدت شمسًا منذ مجيئكم؟!».

انتبه الثلاثة الآن لغياب قرص الشمس عن أعينهم منذ مجيئهم، هم فقط شاهدوا ضوءًا أبيض، ولكن لا شمس هناك في الأفق، اعتيادهم على وجودها مصدرًا للضوء أعمى عنهم الحقيقة..

– «فكيف إذن» أكمل (السيد) وهو يتحرك بهم في القاعة ناحية الباب الأيسر «نقيس الزمان؟».

❀ ❀ ❀

(19)

وصل (سكر) والكابتن (بارد) إلى غرفة دائرية يتشعب منها العديد من الممرات.. الغرفة حديثة بأكملها ليس فيها ذلك الخليط بين أحجار الممرات ومعادن البناء المتطورة..

قال الكابتن (لسكر) وهو يفتح ذراعيه كأنه يحتضن الغرفة:

– «آخر محطاتنا قبل الوصول لمدينة القوس قزح».

دار (سكر) في الغرفة يتأملها.. برغم الشكل المتطور لبنائها ولكنها تشي بقدم عجيب ربما آلاف السنين..

السقف يرتفع على شكل قبة تلتقي عند دائرة صغيرة تظهر منها صفحة سوداء للسماء – لكنه سواد حالك لا نور فيه..

قال الكابتن:

– «لن تصدق ولكننا قرب القطب الشمالي الآن، لا ينقصنا في الواقع إلا ممر صغير نعبره!» صوته المرح لم يتوقف عند علامات الدهشة على وجه (سكر) وهو يكمل:

– «في البدء ستحسبه جنونًا ولكن مرحبًا بك في عالم من الجنون يا صديقي!! ممرات دولسي هذه من أعاجيب الزمان.. بالمناسبة، على

الرغم من التطور الظاهر عليها فإن عمرها لا يقل بأي حال من الأحوال عن عشرة آلاف سنة بمقاييسنا الأرضية!».

أخيرًا استطاع (سكر) أن ينطق، العجائب التي احتواها عقله منذ مجيئه في هذا العالم زادت حتى صارت سهلة الاحتواء والاستيعاب، سأله:

- «وما الذي يوقفنا؟».

هز الكابتن كتفيه باستهتار:

- «في الواقع ننتظر الإذن بالدخول.. الشماليون على علم بتحركنا منذ عبرنا البوابة الأولى» سأله (سكر) وهو يشير للأبواب المتعددة:

- «ولماذا لا نعبر ماداموا ينتظروننا؟»

- «لأكثر من سبب يا صديقي الصغير».

لاحظ (سكر) الآن الحالة المزاجية غير المعتادة للكابتن أثناء كلامه، هالته أخبرته. أكمل الكابتن وهو يعد على أصابعه:

- «أولًا هم بحاجة للتأكد أن الرماديين لا يتبعوننا، ثانيًا... قاطعه (سكر) فجأة:

- «مهلًا.. أنت من قبل قلت إن الرماديين لا بأس بهم.. هم حلفاء أليس كذلك؟؟»

-«حلفاء نعم... ولكن ستدرك هنا يا صديقي أن لكل جنس خصوصيته التي يحافظ عليها.. الشماليون على أية حال أكثر الناس حفاظًا على خصوصيتهم..

ثانيًا، هم يحتاجون للتأكد أن الزواحف لا ينتظروننا!».

- «ينتظروننا؟! ألم نهرب منهم.. بل ألم نقض عليهم كما قلت؟!»

بدأ أحد الأبواب الدائرية يضيء بشكل متقطع والكابتن يرد:

- «هذه مشكلة أزلية في الأنفاق يا صديقي.. إنها لا تصل مباشرة حيث تريد.. بل لأقرب نقطة إليها.. سنحتاج أن نعبر مساحة محايدة من الصحراء..

(الصحراء لا بد من عبورها)هذه قاعدة رئيسية هنا!».

ثم أكمل وهو يشير إلى الباب المضيء:

«هي مجرد إجراءات حذرة لا أكثر.. فبوجودك أصلا تصير أنت خطرًا على الزواحف.. هذا سر الإذن السريع في رأيي».

كان هذا هو الحوار الذي يدور ولكن فات الكابتن أن (سكر) شرد ذهنه في أمر آخر..

هل قضى على هؤلاء الزواحف؟

هل كانوا بالفعل خطرًا عليه؟

وهل الشماليون - كما يقول الكابتن - حلفاؤه؟

منذ مجيئه هنا وهو يجري بلا فرصة للتفكير..

لذا ترك الكابتن يتكلم وعقله يفكر - لاحظ أن جزءًا منه أدار الحوار مع الكابتن بعزلة عما يدور في باقي عقله!!

ما وصل إليه أنه يحتاج لوقت للتفكير..

-«كابتن....».

التفت الكابتن إليه متسائلًا!

أعطاه (سكر) ظهره وهو يتنفس بهدوء مسيطرًا على أعصابه – من جديد تدريبات التنفس (للشاعر) أفادته – وسأل الكابتن بصوت هادئ:

–«ألن تكمل حكايتك؟».

– «ماذا؟ أكمل الحكاية؟!».

ثم نظر للبوابة المضيئة التي تسارعت نبضاتها وهو يسأل قلقًا:

–«ولكن يا صديقي.. ألم نتفق أن يحكي لك الشماليون الحكاية؟ لا نريد أن نتأخر.. ربما نتعرض للخطر.. للوقت هنا ثمنه صدقني»
رد (سكر) ببرود:

– «أنت قلت من قبل إن الخوف ليس علينا نحن بل على مطاردينا.. أو.. ربما...».

والتفت إليه مكملًا:

«الخوف عليك أنت!».

من أين جاء بهذه النبرة المرعبة التي اخترقت خلايا الكابتن؟!

لا يعرف..

إنه الآن يتبع إحساسه، ولإحساسه هنا وجود يشعر به بداخله..

وجود مادي ما..

– «أتعرف يا كابتن؟».

قالها وهو يتجه إلى بوابة أخرى مغلقة..

«إحساسي يخبرني أن هذا الممر سيفتح بابه لي».

حاول الكابتن أن يرد..

حاول أن يعترض..

حاول أن يخبره بفزعه وهلعه لما رأى البوابة التي اتجه لها (سكر) تنبض وتتموج كقلب كائن حي وهو يقترب منها..

حاول أن يخبره أنهما يتجهان للزواحف رأسًا!

حاول كثيرًا..

ولكن هالة (سكر) الحمراء والرائحة الحارة التي عبقت الجو لم تدع له فرصة للتنفس وهو يتبعه مرغمًا!

❀ ❀ ❀

(20)

سأل (الحديدي) بلهفة:

- «نعم أخبرنا من فضلك، كيف يقاس الزمان هنا؟».

أجابه (السيد) بصوته المبحوح الهادئ:

«لا أحد يعرف.. لا أحد منا على الأقل.. كما قلت لكم هنا الأسئلة بحساب.. واقع وجودنا هنا أشد حضورًا من الاستفسارات العديدة التي تشغل البال.. كثرة الأسئلة - كما اكتشف كل واحد منا - وكثرة انشغال الذهن هنا تهلك الجسد حقيقة.. ما عاينتموه من مجرد الروي ليس إلا مثالاً صغيرًا.. ولكن، لماذا أضرب أمثلة كثيرة؟! أنتما - ثم أشار (للشاعر) و(الحديدي) - عاينتما ما أقصد أثناء نزولكما من البوابة.. لقد كان صوت عراككما يصل إلى آخر الصحراء.. إن المشاعر الزائدة هنا لها ثمنها!».

ثم أشار لبعض الرجال الذين تجمعوا بفضول حول باب القاعة يتابعون الحوار:

- «وهذا مثال عمليّ آخر».

لم يمض على كلامه ثوانٍ إلا وكان الرجال كلهم ممددين على الأرض وأنفاسهم تتلاحق و(السيد) يكمل:

- «رغم تدريبهم ورغم معرفتهم فما زالوا ينسون وغلب فضولهم عقلهم - ربما لأن أحدًا منهم لم ير من قبل ضيفًا.. جميل أننا مازلنا هنا لم نخرج بعد في قلب الصحراء، العاصفة ساعتها كانت ستبتلعهم تمامًا!».

«سيدي....».

تردد صوت (بيدو) بهدوء..

على الرغم من صمته الغالب فإنه بدا أكثر الثلاثة استيعابًا.. «ما شأن تلك العاصفة التي تكلمنا عنها والتي يبدو أن الكل قلق بشأنها؟».

انتبه (الشاعر) و(الحديدي) الآن أن (بيدو) كان هو أولهم نهوضًا بعد انقطاع النفس من الروي..

ربما لهدوئه الغالب على شخصيته..

ربما طبيعته المتقبلة غير الصدامية..

أو ربما للاثنين معًا.. بشكل ما بدا (بيدو) في نظر رفيقيه أكثر انسجامًا عن ذي قبل، كأنما المكان أضفى لشخصيته بعدًا آخر! نظر (السيد) (لبيدو) قليلاً وهو يتأمله وأيقن الثلاثة أن (السيد) يقيمه..

دقيقة أو أكثر ثم تحرك (السيد) ناحية الممر الأيسر وتبعه الجميع في صمت.. قبل مدخل الممر قال (السيد) وهو يلتفت (لبيدو):

- «هل رأيت من قبل محيطًا غاضبًا؟!».

- «بكل تأكيد».

-«هذا هو بالضبط ما ينتظرنا يا (بيدو).. الصحراء هنا ليست إلا محيطًا ساكنًا.. نسير عليه لحظة سكونه؛ فإذا ثار كان كالمحيط في ثورته..

فقط ما يثور هنا رمال الصحراء.. هل تخيلتم ما ينتظرنا؟!

بل – ثم التفت ثانية (للحديدي) و(الشاعر) –السؤال الأفضل.. هل أدركتما حجم فعلتكما؟!».

لم تكد الدهشة تتجسد على ملامح الثلاثة حتى بادرهم (السيد):

–«مهلًا.. مهلا.. وحاولوا أن تركزوا معي قليلًا فتلك معلومة في غاية الأهمية.. معلومة سقط لمعرفتها الكثير من الضحايا.. الآن من فضلكم حاولوا أن تحافظوا على استمرار تنفسكم.. هل لاحظتم أنكم تكتمونه؟».

تردد صوت تنفسهم العالي و(السيد) يكمل:

– «الصحراء هنا تتفاعل مع المشاعر بشكل غير مفهوم.. أحيانًا يكون المناخ حارًا وأحيانًا باردًا، وأحيانًا تثور الصحراء كما أخبرتكم كأمواج المحيطات الثائرة.. ظل هذا محيرًا لي منذ مجيئي هنا، ثم لاحظت مع طيلة مكثي ارتباطها بالحالة النفسية لي ولغيري.. هذا يفسر لكم قرب العاصفة بمجيئكم وبثورتكما أنتما الاثنين!» كان (بيدو) هو المبادر بالسؤال بصوته الهادئ:

– «وما الذي يعجل بتحركنا وعاصفة كتلك التي تحدثنا عنها في الطريق؟».

رد (السيد):

« نحن لن نتحرك الآن يا (بيدو)، بل سنختبئ قليلًا في القاعة السفلية حتى تخف حدة العاصفة التي لن يوقفها الجبل هذا، ثم نتحرك للبحث عن (سكر) لأنه لو صحت روايتكم أنه السيكتوريوم...».

قاطعه (بيدو):

– «نحن لم نقل هذا ولكن الشيخ (سيد) هو الذي قالها» رد (السيد) دون أن يبدو عليه الضيق من المقاطعة كما بدا على (برنابا) بجواره:

«إن كان قد قالها فهي حق إذن.. ليس المهم الآن أن نتحقق من النتيجة.. بل المهم: من سيظن هذا الظن أيضًا! لو أن صديقكم هو السيكتوريوم أو أن هناك شكًا في أنه كذلك فيعني هذا أن الكثير غيرنا مهتم به..

الزواحف لن يكونوا الوحيدين.. المشكلة فقط أننا نجهل أين بالضبط هبط صديقكم.. أين نقطة التقائه بالصحراء.. لهذا كنا بحاجة للطوارق؛ هم أفضل من يتحرك في الصحراء وقت العاصفة.. الآن ليس لنا إلا البحث المتتالي في كافة نقاط الالتقاء الممكنة وما حولها – لا أظن أن صديقكم ونقطته تلك ستكون بعيدة عن النقاط الأخرى».

من خلفهم تردد صوت (الحديدي) بهدوء وكأنه يزن كل كلمة يقولها:

– «أظن.. أني.. أعرف أين نجد (سكر)».

التفت الجميع إليه فوجدوه واقفًا في الخلف وفي يده كانت الخريطة التي أحضرها معه وهو يكمل:

– «نسيت أن أخبركم أني أحضرت هذه الخريطة معي».

❀ ❀ ❀

حينما فرد (الحديدي) الخريطة أمامهم لم يملك (السيد) نفسه ولم يملك انفعاله فارتج الجبل وماج كأنما هم يقفون على سفينة في قلب البحر..

أمسك (السيد) الخريطة وتأملها طويلاً قبل أن ينظر إلى الرفاق الثلاثة ويسألهم:

– «كيف جئتم بهذه الخريطة! يا إلهي! أتعرفون ما هذه الخريطة؟ هذه النقاط السوداء المرسومة عليها ليست مجرد نقاط عبور فردية كالتي جاء منها معظمنا، بل هي النقاط الرئيسية التي طالما حدثني عنها الطوارق – وإن لم نعرف بدقة موقعها..

إنها نقاط عبور هائلة تسمح بعبور جماعي ولم يعرف أحد من قبل كيف يفتحها.. يا إلهي..إن صديقكم في خطر داهم لو علم أحد بوجوده هنا وبوجود بعض نقاط العبور الجماعي قريبًا منا، صديقكم هو مفتاح هذه النقاط.. الكل سيسعى خلفه حتمًا، بل أقول لكم لو أن الطوارق علموا لسعوا لقتله خوفًا من خطورته.. لا وقت لدينا على الإطلاق.. لن ننتظر مرور العاصفة سنضطر لعبور الصحراء مهما كلفنا هذا» ثم صمت قليلًا وهو يهز رأسه متعجبًا: «يا إلهي.. من كان يظن أن تلك الخريطة عند أبي؟! ألم يخبركم كيف أتى بها؟».

أجابه (الحديدي):

«كل ما أخبرنا به أنها إرث توارثه من رجال طريقته تلك!».

شوّح (الحديدي) بيده مع آخر كلامه ولكن (السيد) لم يهتم كثيرًا بمغزاها وهو يهز رأسه بشرود قبل أن ينزل مسرعًا في الممر وركضوا هم من خلفه..

انتبهوا أثناء نزولهم إلى أنهم مروا على قاعة شبيهة بالقاعة الرئيسية، لكن (السيد) لم يتوقف عندها بل استمر في النزول حتى وصلوا إلى قاعة مظلمة تمامًا تبدو كأنها في قاع الجبل.. تردد صوت (السيد) مبددًا الظلام من حولهم:

–«الظلام الذي أعاق نزولكم هنا من قبل ليس صدفة بل هو بفعل فاعل!».

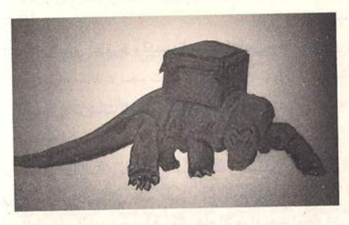
بدأت بعض الثريات المعلقة في السقف توقد مع صدى كلامه وهو يكمل – باستعجال:

«في الواقع هذا المكان به ثروة أساسية لنا ومصدر رئيسي لقوتنا في الصحراء.. الطوافات التي جئتم عليها – تلك المضادة للجاذبية– لا تعمل في قلب العاصفة، الخروج بها في مثل هذه الأجواء يعد انتحارًا.. نحن سنمتطي (العظايا)!».

في تلك اللحظة كان الأسد (أسامة) قد عبر مدخل القاعة ووقف على منصة حجرية في منتصفها وهو يزأر بصوت منخفض غير منقطع.. أكمل (السيد):

–«لولا (أسامة) ما قدرت على ترويضهم..في الواقع هو الذي روضهم..كما قلت لكم هو أسد له نفحاته» كان الثلاثة الآن يستمعون لصوته بغير وعي وأمام أعينهم بدأت أرضية القاعة – الرملية – تفور ورءوس عظايا ضخمة تنفض الرمال عن نفسها فتثير عاصفة رملية في المكان لبضع دقائق، ولما هدأت تلك العاصفة الصغيرة أكمل السيد:

– «نعم، هي خطيرة كما يبدو من مظهرها، ولكن – وهذا هو الأهم – هي المخلوقات الوحيدة التي تقدر على أن تسير في هذه العاصفة!



❀ ❀ ❀

(21)

في السيارة الرئاسية السوداء حاول الرئيس الأمريكي – إفريقي الأصل– أن يسترجع تلك المحادثة التي تمت في غرفة مكتبه ببيته في ولاية إيلينوي..

متى كان هذا؟

ربما منذ خمس سنين، أكثر أو أقل قليلًا..

ليلة مرهقة كانت، ومقعده المريح بجوار المدفأة يناديه..

اليوم كله قضاه في مناقشات مرهقة مع رجال الحزب يناقشون خطة ترشيحه للرئاسة..

خطة الدعاية..

فريق العمل المرشح..

خطة العمل التي سيقدمها..

التدريب على الخطابة..

والمزيد المزيد من الخطط والتدريب والمراجعات المستمرة بلا نهاية..

يذكر تراجعه وقتها في مقعده وغوصه فيه متصورًا لحظة انتصاره الموعود..

يذكر سريان الدفء في جانبه من المدفأة ثم لباقي جسده..

عقله يسترخي كما قد دربه ذلك المدرب الذي أحضروه لتهيئته نفسيًا..

يسير على الخطوات التي حفظها.

تخيل جسده الأثيري يفارق جسده ويرتفع للسماء..

الآن ينظر لنفسه من أعلى..

عليه- بحسب الخطوات التي تدرب عليها - أن يرجع بجسده الأثيري إلى ماضيه عندما كان رضيعًا ويستحضر لحظات سلامه مع نفسه ومع الدنيا وقتها..

يعيشها ثم يتحرك بها، وينطلق بوعيه مستحضرًا تلك المشاعر التي عاشها كرضيع إلى المستقبل حيث يقف أمام الجماهير التي تحييه بعد فوزه بالانتخابات..

السلام والراحة وهو ينظر لمحبيه..

السلام والراحة يخطب خطبة نصره..

والسلام والراحة حين يطأ غرفة الرئاسة البيضاوية..

هكذا فعل لليالٍ طويلة، وهكذا كان ينوي أن يفعل تلك الليلة..

كان في أشد أوقات احتياجه لرحلته الأثيرية تلك الليلة أكثر من أي وقت..

السباق الرئاسي في محطته الأخيرة والتوتر بلغ أقصى درجاته..

يعود يذكر......

يرى نفسه من أعلى..

يقرر أن الماضي إلى اليسار فيتجه إليه..

هكذا علمه ذلك المدرب:

- «قرِّر أي جهة هي المستقبل وأي جهة هي الماضي».

بالنسبة له اليسار هو الماضي، واليمين هو المستقبل..

اليسار أيضًا هو باب غرفة المكتب الخاصة به، والذي شاهده - من عَلٍ - يفتح على غير العادة دون استئذان ورجل غامض يلج بهدوء..

يقف بجانبه ثم يضع يده على كتفه برفق وهو يهمس في أذنه مباشرة:

- «لا حاجة للرجوع إلى الماضي الليلة..سنتكلم قليلًا عن مستقبلك يا باراك»!

❀ ❀ ❀

رجل متخشب..

هذا هو أول انطباع جال في ذهنه..

لوهلة تخيل باراك هذا الرجل في تكوين خشبي..

وقفته المتخشبة..

ملامحه المتخشبة..

ويده المتخشبة التي زين أصبعه الأوسط فيها خاتم مميز..

قال الرجل بصوت خشبي -ككل ما فيه - مبحوح:

- «أعتقد أنك تعرف من أنا يا باراك، وأعتقد أيضًا أنك كنت تعرف أن الزيارة ستتم.. أنت فقط لا تعرف ما المطلوب منك!»

اللهجة الآمرة والنظرات النارية جعلت الرئيس المنتظر بداخله يختفي والطفل الأسود الصغير المضطهد يعود للوجود من جديد..

أكمل الرجل:

- «القاعدة الأولى؛ ما يقال هنا لك وحدك..من تختار مشاركته سرنا الصغير هو في الواقع من اخترت نهايته بأبشع الطرق الممكنة.. هل هذا واضح؟».

اهتزت السيارة الرئاسية قليلا أثناء عبورها البوابة الرئيسية لمبنى المخابرات فانتبه الرئيس من شروده..

مال (تيم فرانكلين) على الرئيس وهو يهمس في أذنه:

-«أرجو أن تحتفظ بهدوئك مهما حدث..نحن لا نحتمل غضبهم!»

❀ ❀ ❀

(22)

على المائدة الحجرية في منتصف قاعة العظايا فرد (السيد) الخريطة التي احتفظ بها (الحديدي)..

- «كنا نعرف - قبل أن نرى خريطتك يا (حديدي) - على وجه التقريب مكان الزواحف والرماديين.. الآن مع هذه الخريطة التي جئت بها نعرف بالضبط الحدود الفاصلة بين كل فصيل.. إنها مزية في منتهى الأهمية يا أصدقائي...... أرجوكم أجلوا قليلًا فضولكم حتى يأتي وقت الإجابة عن أسئلتكم» - قالها وهو يشير بيده مقاطعًا سؤالًا ظهر على وجه (الحديدي)، ثم أكمل وهو يشير إلى نقطة على الخريطة:

«الآن، من هنا جئتم؛ مسجد النبي دانيال كما أخبرتموني وحيث قابلتم أبي، ومن هنا جاء صاحبكم - وأشار إلى العلامة المميزة.. نحن إذن نعرف من أين يبدأ بحثنا..فقط أرجو أن نلحق به قبل غيرنا.. منذ يومين شعر أسامة بتوتر الصحراء وبتحرك جماعي للزواحف، وهذا لن يحدث إلا لأمر جلل..

نعرف إذن أن الزواحف تحركت - هذا أولاً..

ثانيًا تلك النقطة التي جاء منها صاحبكم بالقرب من حدود الرماديين.. فريق آخر إذن عرف حتمًا بوجوده.. الرماديون للأسف مهما حاولنا إقناعهم حلفاء للشماليين...............».

تردد صوت الثلاثة مقاطعًا:

– «زواحف.. رماديون.. شماليـون!».

لكن (السيد) أكمل دون التفات للمقاطعة:

– «كل هذه مشكلات يعلم الله وحده كيف نتعامل معها و...... .».

❀ ❀ ❀

أخيرًا انفجر (الحديدي):

– «**ألن تخبرنا ما الذي تتكلم عنه.. مـا كل تلك الأجناس... لماذا تتجاهلنا كالأطفال هكذا؟**».

تجاوب الجبل من حولهم مع صراخ (الحديدي)..

و أسامة..

والعظايا!

رد الجبل صـدى صراخه كأنـه يبادله الصـراخ بمثلـه واستمر دويه يتعاظـم ولا يتناقص مع زئيـر أسامة حتى بـدا على وشـك الانهيار فوق رءوسهم هم وحدهم..

أما العظايـا فقد هاجت فجـأة مع تـردد الأصوات والتفتـت كلها حول (الحديدي) وحاصرته!

قال (السيد) وهو يشير بيده لأسامة والعظايا:

«قلت لكم من قبل.. هنا لابد أن تسيطروا على أفعالكم قبل أن نخرج للصحراء، لحسن حظكم أننا في بيتنا!».

هـدأت العظايا وهـدأ أسامة مـع صوت (السيـد) المبحـوح وهو يكمل مخاطبًا رجاله:

– «سنحتاج إلى أسلحتنا يا رجال.. هذه مخاطرة لابد منها!».

ثم نظر للثلاثة مكملًا:

–«نحن سنذهب للتسلح وأنتم ستبقـون هنا.. تحتاجون إلى وقت للتأقلم مع العظايا!»

رد (الشاعر) بذهول:

– «ماذا؟!».

قال (السيد) بصبر:

– «العظايا كائنـات رقيقة المشاعر جـدًا – نعم لا تنظـروا إليّ هكذا – ستعلمـون هذا مـع الوقـت.. لكنها بنـات الصحـراء، تتأثر بمـا تتأثر به الصحراء.. لهـذا نعزلها هنا في الظلام حتى تهـدأ أعصابها، أثناء تحركنا لو شعرت بخوفكم منها مثلًا فلا نعرف كيف يكـون رد فعلها.. أقلُّ شيء إن نجوتم من ثورتها أن تتركـكم فـي قلب الصحراء، وصدقوني لن تودوا البقاء فـي الصحراء ليلًا أبـدًا وحتمًا لن تقـدروا أن تعيشـوا فيها لحظة في وسط العاصفة!».

غـادر أغلب الرجال القاعـة أثناء حديـث (السيد) مـع الثلاثة، وعقّب (الحديدي):

– « لكننا نريد أن نتسلح أيضًا.. لو أنكـم تتوقعون هجومًا ما فيجب ألا نكون مكتوفي الأيدي وسطكم».

رد (السيد):

–«لم يأت الوقت بعد يا (حديدي) لحملكم السلاح ، كل المطلوب منكم الآن هو الائتناس بالعظايا وتغيير ملابسكم ، أما السلاح فلم يزل أمامكم الكثير حتى تحملوه!».

سأله (بيدو) بصوت هادئ وكأنه يسأل ليستمر الحوار فقط:

– «ولكن لماذا؟ لن يضر بالتأكيد حتى لو لم يمسك أحدنا سلاحًا من قبل.......».

قاطعه (الحديدي):

–«تكلم عن نفسك يا بيدو!».

أكمل (بيدو) بهدوء مَن لم يُقاطع:

– «أن يدافع عن نفسه ضد أي خطر حتى لو بشكل عشوائي».

رد (السيد):

–«تلك هي أخطر مشكلة يا صديقي، بالإضافة إلى أنكم – ولتعذروني– مازلتم صغارًا!».

و قبل أن ينفجر (الحديدي) في وجهه انصرف ضاحكًا – لأول مرة– في طريقه لقاعة أخرى!

❀ ❀ ❀

أول من كسر حاجز الصمت للثلاثة في قاعة العظايا كان (بيدو)..

من جديد بدا أن شخصيته قد زاد تأقلمها منذ مجيئهم..

صوته كان هادئًا مطمئنًا:

–«ما دام (السيد) قد تركنا هنا مع العظايا وحدنا فلابد أن الأمر آمن.. ربما الخوف من داخلنا نحن.. ربما هي الصورة الذهنية لدينا من عالمنا العظايا.. على كل حال هي صورة من عالمنا نحن وواضح أن المعايير هنا مختلفة».

صاحب صوته الهادئ توجهه بهدوء ناحية أقربهم..

شعرت العظايا بهدوئه وانسجامه؛ فالتفتت حوله وهي تهز ذيلها كأنها قطيع من الكلاب!

تساءل (بيدو) وهو يمد يده بحذر:

– «هل....يمكن؟!».

وكأنما فهمت العظايا كلامه فأحنت القريبة منه رأسها لتبلغ مستوى يده ثم تشممتها.. بعد دقيقة بدأت تهز ذيلها وهي تدور بسرعة مذهلة من حوله مثيرة الرمال من تحتها!

أكمل (بيدو) بمرح:

– «نعم....هي كالكلاب تمامًا في عالمنا!».

شجعت كلماته رفيقيه فاقتربا بحذر، ثم ربت كل واحد منهما على أقرب عظاة له.. دقيقة أخرى وكانت كل العظايا ملتفة حولهم لتنال نصيبها من المداعبة..

قال (الشاعر) وهو يداعب إحدى العظايا أسفل فكها:

– «يبدو فعلًا أن الصورة الذهنية لدينا هي التي أخافتنا».

من جديد بدا أن العظايا قد فهمت قوله فالتفتت كلها ناحيته ثم . . . . بدأت في تغيير شكلها!

أمام أعين الثلاثة المندهشة تحول جلد العظايا إلى فراء ناعم متموج الألوان كقوس قزح!

كان جمالها أخاذًا وألوان فرائها الناعم تتماوج وتتمازج . .

شق صوت (بيدو) الهادئ الدهشة التي عبقت المكان وهو ينظر إلى أعين العظايا الزرقاء الواسعة:

- «لم أكن أتخيل هذا الجمال».

التفتت إليه أقربها وهي تداعبه تقديرًا لرأيه!

قال (الشاعر):

«إذن ليس الشكل إلا وسيلة تخفٍّ متطورة».

أكمل (الحديدي):

- «ليس تخفيًا يا شاعر . . الأوقع أنها وسيلة إخافة لأعدائها، أو ربما حماية لها إذا نزلت - كما رأيناها - تحت الرمال».

أكمل (بيدو) على كليهما:

«بغض النظر، فهي فعلًا رائعة».

دوّى صوت (السيد) من بوابة القاعة:

- «بالفعل . . هي كذلك».

التفتوا جميعًا إليه، لم يكونوا قد انتبهوا مع ضوضاء العظايا لمجيئه . . كان يرتدي ملابس حرب جلدية قديمة كالتي يرتديها الفرسان . .

أكمل السيد:

- «الآن . . هلا انضممتم إلينا في القاعة الرئيسية . . هناك الكثير من الأمور لنناقشها».

❀ ❀ ❀

على المائدة الدائرية في منتصف القاعة الرئيسية فرد السيد الخريطة . .

كان الكل ملتفًّا حوله يستمع بتركيز . .

صوته المبحوح سرى في القاعة وجدران الجبل:

-«النظرة الأولى للخريطة رأيت فيها النقاط الرئيسية كما قلت لكم من قبل، ولكن (برنابا) لفت نظري لاحتمالية أخرى . . في البداية ظننا الخريطة تصف طبقات متراكبة فوق بعضها . . نحن هنا في الصحراء نقبل بالطبع هذا رغمًا عن جهلنا لكيفية الانتقال لتلك الطبقات أو ما الذي يسكنها . . غير أن نظرة (برنابا) الثاقبة وجدت تفسيرًا آخر فما ظنناه طبقات سفلية لمزيد من الأراضي كان في الواقع رسمًا للخريطة من زاوية أخرى ليس أكثر، أو لو شئنا الدقة من بُعد آخر!».

سكت (السيد) قليلًا وهو يتأمل في وجوه مستمعيه ليتأكد من متابعة الكل ثم أكمل:

«الصحراء تلك لها أسرارها التي لم نكشف أغلبها بعد، وكما قلت لكم تقبلناها وإن لم نفهمها.. من ضمن تلك الأسرار شبكة الأنفاق والتي – للأسف – تعرف كل الأجناس أسرارها ومساراتها ما عدا نحن مهما حاولنا.. كان هذا بالطبع قبل هذه الخريطة التي لا أعرف كيف وصلت ليد أبي بأي حال من الأحوال!

هذه الخريطة تصف الأنفاق بدقة عجيبة.. دقة لا تأتي إلا ممن صممها بنفسه!! مثلًا صاحبكم جاء من هذه النقطة الرئيسية – كان يشير إليها وهو يتابع– ولو دققتم لوجدتم ثلاث طبقات من الأرض تحتها.. تلك ليست طبقات كما ظننت لأول وهلة ولكنها نقاط التقاء، أو نقاط عبور لتلك الطبقات أو الأبعاد لو شئنا الدقة..

ثلاث طبقات لثلاثة أجناس رئيسية – لو استثنيا جنسًا رابعًا لا أود حتى التفكير فيه – الزواحف والشماليون والرماديون..

نحن لا نعرف من الذي قابل صاحبكم أولًا ولكن مَن قابله حتمًا أخذه معه إلى البعد الخاص به أو إلى الجزء المقابل له في الصحراء.. هنا لابد أن تعلموا أن الصحراء موزعة بدقة على الأجناس كلها..

من الذي وزع هذا التوزيع؟ لا علم لديَّ، ولكن ما نعلمه أن محاولة السيطرة على أي جزء غير خاضع لك هي محاولة فاشلة وغير مجدية بالمرة.. الصحراء هي البوابة الخارجية للبعد الخاص بكل جنس، ولا تجعلوا عقولكم تقف عند حدود كلمة البوابة في عالمكم.. لا، بل هي (وسط) بأكمله ينسجم مع أصحابه.. لهذا تكون محاولة اجتياح أي فصيل للآخر مستحيلة لأن (الوسط) يعاديك على الفور.. إذن الخريطة تصف

لك أمرين في منتهى الأهمية.. تصف لك حدود كل فصيل في الصحراء وكذلك خريطة الأنفاق التي تقود للبعد الخاص به..

خريطة الأنفاق هذه في منتهى الأهمية إذ إنها المكان الوحيد الذي تتعادل فيه الكفة، أو بمعنى أصح يصير (الوسط) محايدًا»

تبادل الثلاثة نظرات القلق أكثر مع كلام (السيد) الأخير وهو يكمل:

– «الرماديون لهم قدرات عقلية غير عادية.. نعم هم غير مؤذين ولكنهم أيضًا غير ودودين.. هم في الواقع بلا مشاعر على الإطلاق! وهنا لا أقصد بكلامي جفاف المشاعر كما قد يأتي في أذهانكم.. بل أقصد انعدامها بالكلية، وهذا يا أصدقائي سر خطورتهم الحقيقي.. هناك أيضًا الزواحف.. هم في منتهى الشراسة، ومع ذلك في منتهى الجبن، ويبدو أن جينات الزواحف – التي نراها في عالمنا تتوارى في الشقوق والفجوات – موجودة فيهم، لكن يميزهم بطبيعة الحال قدراتهم التمويهية و(الرؤية المعتمة)!».

سأله (الشاعر) مندهشًا:

– «الرؤية الـ... ماذا!؟».

رد (السيد):

– (الرؤية المعتمة).. من جديد أنبهكم لعدم وجود شمس أو قمر هنا.. الليل إذن هنا معتم تمامًا، ولأن الرؤية تعتمد على وجود مصدر للضوء مهما كان ضعفه، ولأن هذا المصدر غير موجود فلا رؤية هنا في الليل على الإطلاق –أنتم حتمًا لاحظتم هذا في الممر المؤدي لغرفة العظايا –

هذا نموذج للظلام الذي أكلمكم عليه وإن كان غير كامل لتسلل بعض الضوء إليه كل فترة.. الجبل هنا يساعدنا على توفير الظلام للعظايا في البقعة التي يبيتون فيها.. هذا يساعدهم على الإحساس ببيئتهم الأصلية».

سأل (الشاعر):

– «ولماذا لا تستخدمون أي وسيلة إضاءة في ظلام الصحراء هذا؟».

– «خمّن.. ألا تجد سببًا مقنعًا في رأيك!؟».

– «الإجابة واضحة يا (شاعر)– هذه المرة كان (الحديدي) هو من أجاب – في ظلام مثل الذي يحكي عنه (السيد) وفي صحراء مليئة بالأجناس المختلفة تكون أي إضاءة بمثابة إعلان عن وجودك».

أيّد (السيد) (الحديدي) بإشارة من يده وهو يكمل:

– «بالإضافة لذلك فكل وسائل التكنولوجيا الحديثة التي قد تخطر في بالكم لا تعمل هنا على الإطلاق فيما عدا تكنولوجيا الشماليين وتلك الطوافات التي ورثناها من الفراعنة.. لا أعرف السبب في هذا ولا الرابط بين الفراعنة والشماليين..

النقطة الأخيرة تلك أخذت من بحثي الكثير من الوقت ولم أصل فيها لإجابة شافية غير بعض التخمين، وما وصلت إليه في النهاية أن كلا الفريقين يتعامل مع نفس التكنولوجيا. فقط ما بأيدينا هو النسخة الأقدم مما في أيدي الشماليين.. المشكلة أننا لم نستطع فك شفرة الطوافات على الرغم من بساطة شكلها وبالتالي لم نستطع أن نطور أي أجهزة واكتفينا بما لدينا..

لا تجعلوا ذلك يخيفكم (فالوسط المعادي) يتكفل بحل أي فوارق تكنولوجية مادمت في حدود أرضك من الصحراء.. لذا يصير الأمر خطيرًا إذا بدأت في عبور حدودك».

توقف (السيد) قليلًا ليلتقط أنفاسه.. لاحظوا تغير أسلوب التنفس هذه المرة ولاحظ (السيد) نظراتهم:

– «سيأتي وقت وأعلمكم هذا الأمر.. الآن دعوني أكمل قبل أن تفوتنا لحظة الانطلاق المثالية.. نعود للزواحف ورؤيتها المعتمة.. يظهر لكم الآن خطورة الزواحف إذ إن تحركاتها في ظلام الصحراء قاتلة ولولا أن أسامة يستشعر وجودها من بعد لفاجئونا كثيرًا حتى برغم (الوسط المعادي) الذي قد تخدعه مناوراتها!

ومن هنا أيضًا تظهر لكم أهمية العظايا فهي الوحيدة بجانب الزواحف التي تقدر – ربما لوجود علاقة قرابة – على (الرؤية المعتمة).. لحسن الحظ فعلا أن أسامة ساعدني على ترويضها، هذا ساعدنا على مقاومة الزواحف.. بالطبع إذا تجنبنا الكهرباء الصادرة منها!!».

من جديد تعالى صوت اندهاشهم:

– «الكهرباء!».

بدا أن الجبل قد تقبل طبيعتهم فلم يثر لانفعالهم وكذا أسامة و(السيد) يرد:

–«نعم.. كهرباء.. لماذا تقبلون وجودها في عالمكم ولا تقبلونها هنا.. هناك أسماك في المحيطات تقتل فرائسها بشحنات كهربائية والزواحف تفعل هنا الأمر نفسه.. الفارق فقط في قوة تلك الشحنة والقدرة غير العادية على

توجيهها عن بعـد.. لهذا ملابسنا جلدية و هي من جلـد العظايا التي ماتت وهو عـازل ممتـاز للكهرباء.. علـى الرغم مـن غرابة كلامـي هذا فـإن عليكم التصديـق وعدم البحث عـن تجربة عمليـة.. مقابلة أحد الزواحـف في الليل ليست تجربة ممتعة على الإطلاق».

لاحظ (الشاعر) تغير ملامح (برنابا) أثناء كلام (السيد) وفي لحظة عاد وجهه للجمود التام!

– «يتبقى لنا، الشماليون».

كرر (الشاعر) من خلفه وهـو ينظر نظرة ذات مغـزى (لبيدو): «نعم.. الشماليـون.

نظـر (السيد) بدهشـة (للشاعر) وملامـح الفضول التـي ارتسمت على وجهه:

– «هل سمعتم من قبل عن الشماليين!».

أجاب (بيدو):

– «بالطبع سمعنا عنهم جيدًا.. أنا و(الشاعر) قرأنا كل كتابات تولكين الذي تكلم عنهـم باستفاضة في ملحمـة سيد الخواتم وفـي تاريخ الأرض الوسطى».

لم يعلق (السيد) وإن أشار (لبيدو) بالاستمرار.. كانت نظراته مركزة جدًا ومنتبهة.. أكمل (بيدو):

«ما نعرفه أن تولكين لم يخترع أو يؤلف هـذا الجنس بل استوحاه من الأساطير النرويجية القديمة وأعاد إحياءها في ملاحمه»

أكمل (الشاعر):

– «بل يقال إن هتلـر نفسه قد ادعى الانتساب إليهـم وإنهم هم أصحاب الدماء الزرقاء الملكية التي سمعنا عنها كثيرًا من قبل»

قال (السيد) وهو يبتسم:

– «رائـع.. أنا لا أعـرف من هو تولكيـن هذا غيـر أن وجود معرفة لديكم يسهل (تقبلكم) لصفاتهم هنا».

سأل (بيدو) والحماس يتسلل لصوته:

– «إذن.. هم بالفعل من ذوي الدماء الزرقاء».

– «نعم.. على الأقل هذا ما شاهده القليل الذي نجح في إصابتهم – وهو أمر يكاد يكون مستحيلًا في الظروف العادية».

أكمل (الشاعر) وكأن عدوى الحماس قد بدأت تنتقل إليه:

– «إذن لـو أن الأساطير صحيحة فهـم قوم طوال القامـة، في منتهى الوسامة، يشبهون أهل السويد، وبقليل من الخيـال والتخمين هم أيضًا في منتهى التقدم التكنولوجي».

– «صحيح.. ولكن كيف خمنت هذا؟!».

– «الأساطير تصفهم بقدرات خارقـة وبمركبات متعددة يأتون بها من خلف النجوم.. هذا في العادة وصف بدائي لتقـدم تكنولوجي تعجز عقول هذا الزمان عن فهمه أو تصنيفه».

– «أصحح لك فقط آخـر معلومة.. هم لا يأتون مـن خلف النجوم بل من باطن الأرض!

الآن تفهمون ما عناه أبي حينما ترجم لكم ذلك النص:

سطح الأرض تحت النجوم

فوق النجوم تحت الأرض

لن يقابل إنسيٌّ خلقًا

إلا على أرض سواء

يكون الاثنان فيها واحدًا!»

❀ ❀ ❀

رفع (السيد) بصره عن الخريطة وهو يقول بلهجة حاسمة يختم بها حواره:

- «العاصفة التي توشك على البدء ستكون في صالحنا لو استطعنا عبورها.. هي مخاطرة لابد منها فنحن نحتاج للوصول إلى نقطة مجيء صاحبكم في أسرع وقت ممكن وبأقل ملاحظة من أي فصيل آخر..

دعوني أذكركم.. الوصول لصاحبكم ليس لإنقاذه فقط، بل لتجنب ما يفوق ذلك خطورة بمرات!!

صاحبكم - السيكتوريوم - هو مفتاح فتح بوابات العبور الجماعية لهذا هو مطارد ومطلوب منذ مجيئه..

ما عليكم أن تعرفوه الآن أننا حكمنا على أنفسنا بالسجن في هذه الصحراء للأبد فقط لنغلق عليهم ما أمكن من بوابات العبور الفردية، وقد نجحنا أحيانًا وفشلنا أيضًا في أحيان أخرى، ومن النقاط التي فشلنا فيها وفشل في سدها ربما آخرون من أزمنة سابقة جاءت كل تلك المشاهدات

من المخلوقات والأطباق الطائرة التي تسمعون عنها والتي لم تسمعوا عنها أيضًا بعد ما خبأت الحكومات المختلفة الأخبار..

ستعجبون إذا علمتم أن حكومات كثيرة متعاونة مع مختلف الأجناس بل تسمح بتجارب جينية كاملة في الخفاء!»

رد (الحديدي) لأول مرة منذ مجيئه بصوت غلب عليه الهدوء:

- «لا يا أيها السيد.. لا عجب هناك.. منذ أن هاجمنا ذلك الشرطي وأنا أدرك أن هذا التحرك لم يكن فرديًا بل رسميًا»

وضع (السيد) يده على كتف الحديدي مؤيدًا:

- «أحسنت..» ثم أكمل مع مرأى الجنود وقد عادوا إلى القاعة بعد تسلحهم: «الآن تفهمون سر تحركنا السريع، فالسيكتوريوم يجب ألا يقع في يد أي فصيل.. بوابات العبور الكبرى يجب ألا تفتح أبدًا.. ليس في هذا الزمان على الأقل!».

وقف الجنود عند باب القاعة في تشكيل نظامي..

أسلحتهم تراوحت بين السيوف والخناجر والرماح والأقواس، لكن مرأى الجنود وأسلحتهم أعاد (للحديدي) عصبيته رغم محاولته الظاهرة تمالك نفسه فخرج صوته مكتومًا:

- «معذرة، ولكن هذه السيوف والأسلحة - البدائية - ليست معضلة في حملها.. أنا تدربت منذ صغري على الألعاب القتالية وأظن أني أجيد استخدامها ولسنا صغارًا كما تقول!».

لم يظهر (السيد) ضيقه من مقاطعة (الحديدي) له وهو يناوله سيفًا:

– «إذن؛ فالتجربة خير برهان».

على الفور جلس الجنود في أماكنهم وتبعهم تلقائيًا (الشاعر) و(بيدو) وقد اختلطت ابتساماتهما المتبادلة بالشغف والترقب..

أمسك (الحديدي) السيف بقوة وهو يقيس المسافة الفاصلة بينه وبين (السيد)..

أربع خطوات..

(السيد) سيفه مسترخ في يده فزاده هذا حنقًا..

خطوة يقطعها بحذر..

السيف ثقيل جدًا كأنما قطعة من الأرض، و(السيد) لا يتحرك!

خطوة أخرى..

أنفاسه تتلاحق مع كرامته التي تؤجج نارها عزيمته..

خطوة أخرى بحذر وبجهد شديدين..

بقيت خطوة و(السيد) كما هو..

وكأنما قطع مئات الكيلومترات أنفاسه تتقاطع فتغرق عزيمته في بحر العرق المتساقط على جبهته و......

يشتبك (السيد)!

❀ ❀ ❀

مد (السيد) يده ليساعد (الحديدي) على النهوض:

– «قلت لك.. هنا المشاعر تهزمك.. ثلاث أو أربع خطوات قطعتها أنت بكل هذا الغضب المكبوت كانوا في منتهى الكفاية لي لأقضي عليك لو أردت.. هذا يبين – أكثر – خطورة الرماديين منعدمي المشاعر، أليس

كذلك!؟ الآن هلَّا تحركنا.. تم التجهز لتحركنا في قلب الصحراء.. لذا أرجو من الآن فصاعدًا أن تتركوا كل شكوكم ومخاوفكم خلفكم.. لا ينقصنا – صدقوني – أي مخاطر من جانبنا... اتبعوني»

وقف الجنود على الفور بتشكيلهم النظامي وبدءوا التحرك إلى خارج القاعة يتبعهم الثلاثة..

أمام باب الكهف وقف (السيد) ينظر للأفق..

كان لون السماء بنيًا تمامًا مع اختلاط كل فترة بلون السماء الأبيض ولم يفهم الثلاثة سر هذا الاختلاط..

تنهد (السيد) وهو يلتفت للجموع:

– «لم أكن أتخيل الأمر بهذه الخطورة.. لم أر مثل سرعة هذه العاصفة منذ مجيئي.. يبدو أننا ظلمناكم يا أصدقائي، تلك ليست عاصفتكم، بل عاصفة صاحبكم، وهذا يغير من بعض خططنا..كنا نظن أن التحرك بالطوافات ولو لبعض المسافة في الصحراء ممكنٌ اختصارًا للوقت ثم ركوب العطايا، ولكن لن يمكننا مع اقتراب العاصفة هكذا......».

ثم نظر (لبرنابا) وهو يكمل:

– «ستسبقوني أنتم.. لابد لي من الصعود للمسجد».

لم يبد على (برنابا) أي تعجب مثل الذي أصاب الثلاثة من تغيير كلام (السيد) والتفت (برنابا) إليهم قائلًا بحسم:

– «أنتم ستركبون معي.. هيا بنا».

عادوا أدراجهم للقاعة الرئيسية ومنها للبوابة اليسرى نزولًا للعظايا..

لاحظوا قبل نزولهم أن (السيد) لم يأت معهم بل توجه للقاعة التي جلس معهم فيها من قبل..

❀ ❀ ❀

عاد جلد العظايا السميك يزين جسدها وبات وجهها شرسًا مرعبًا كما كان قبل تحولها..

على كل عظاة وضع الجنود ما يشبه الهودج ليجلسوا فيه..

تحرك (برنابا) لأضخم عظاة فيها -كانت مثله قائدة القطيع- وتسلق بسهولة حبلًا على جانب جسدها..

تبعه الثلاثة بصعوبة، ولاحظ (الشاعر) قبل صعوده أن عين العظاة مغطاة تمامًا بجفن شفاف..

بداخل الهودج صفان من المقاعد الضيقة المتقابلة..جلس (برنابا) على أحدها وجلس الثلاثة تلقائيًا على الأخرى المواجهة له..

بصوت عال صاح (برنابا):

- «أيها الرفاق.... سنسلك الطريق الخلفي للجبل وسيلحق بنا (السيد) عند أول نقطة تجمع».

تحركت العظايا لبوابة في ركن القاعة، وقبل أن تخرج من البوابة إلى ممر ضيق من خلفها سمعوا جميعًا صوت قلب السيد يدق كالطبل فيملأ صداه الجبل!

❀ ❀ ❀

(23)

لم يجد الضابط وقتًا ليقاوم..

كان الصول الصعيدي أقوى منه بكثير وهو لم يزل يعاني آثار النوم..

كل ما شعر به هو كعب البندقية الميري يسحب روحه بأسرع ما يتوقع، وتعجب مع تلك السرعة أن شعور الضيق كان آخر ما يحسه قبل أن تظلم الدنيا!

❀ ❀ ❀

تأكد الصول أن الفيلا - بجوار بحيرة ماريوط - لم تزل نائمة ثم ذهب للشيخ (سيد) في زنزانته المغلقة..

آذان الفجر - الآتي من بعيد - يعطر سكون المنطقة والساكنين حولهم..

دخل على الشيخ بوضوئه فوجده - كما توقع - ينتظره في ركن الغرفة بتلك السكينة التي أسرته يومًا، ربما منذ ثلاثين عامًا حين أخذه والده -الفلاح الدمنهوري النازح للإسكندرية- من يده إلى شيخ مسجد النبي دانيال ليأخذ عهد الطريق منه، بعد هذا أخذته الحياة إلى طريق آخر تمامًا فلم ير الشيخ ثانية..

كان المدد يأتيه غيبًا..

نفس المدد الذي أشار عليه بالبقاء في وظيفته مع ما فيها من ظلم وقهر لخلق الله..

من كان يظن أن يأتي اليوم الذي ينجد فيه شيخه!

وضع الوضوء للشيخ (سيد) وهو يقول بصوت خافت متردد - فقد تصرف دون مشورته:

- «سيدي... إن الضابط لن يضايقك بعد الآن».

نظر إليه الشيخ..

نظر داخله..

في عينيه شاهد اللوم والحزن:

- «لم يكن يضايقنا يا ولدي».

ذكريات السنين تعود إليه..

لم ينس أبدًا نبرته وهو يمسك يده منذ ثلاثين سنة يأخذ العهد عليه:

«عهد الله عليك.. كونوا رحماء في الأرض».

يرد بضعف العارف أن الشيخ يقرأ خاطره:

- «كنت أحاول المساعدة يا سيدي ليس أكثر».

صوت والده يأتي من عمق السنين الطوال يحذره:

- «مع الناس تحفظ لسانك يا ولدي.. لكن... مع الأولياء تحفظ خواطرك».

هو فقط حاول المساعدة - هكذا أقنع نفسه..

لكنه كان يقتل خوفه من الضابط وإحساس العجز الذي لازمه فوق العشرين عامًا من خدمته في هذا الجهاز المقيت..

شعر بخواطره تتردد في هدوء الزنزانة الضيقة كألف ألف مدفع..

نظر الشيخ (سيد) إليه ثانية وهو يتم وضوءه..

عرف أنه سمع - وهل كان يحتاج ليسمع خواطره كي يعرف؟

- «ما حدث قد حدث.. نصلي أولًا ثم نتم ما بدأته يا ولدي».

❀ ❀ ❀

في قبو الفيلا حفرا..

يتذكر الشيخ نبش الضريح فتسيل عبراته مختلطة بأنات الصول التي لم تتوقف منذ صلى بجواره..

ضربة معول من الشيخ جمع فيها كل ما مر به..

السنين الطوال يحرس الضريح ولا يقدر على النزول بنفسه خلف ابنه..

حلق الذكر التي صدت المحاولات العديدة عبر السنين..

الرفاق الثلاثة...

ما فتح لهم صاحب الضريح بابه إلا لأنهم مأذون لهم وهو لا..

يضرب بعنف أكثر فتنهار الأرض فجأة..

تراب ملأ المكان..

تراب مختنق ربما منذ بدء الخليقة . .

دقائق مرت ، وربما ساعات حتى انقشع التراب ، ثم تبين لهما ما أخفته الفيلا أسفلها . .

نظر الشيخ للصول ثم إلـى الفجوة والممر من أسفلهـا وتمتم كأنما يكلم نفسه:

– «هل كان البناء هنا مقصودًا منهم؟» .

أعاد النظر إلى الصول وهو يبتسم:

– «يبدو يا ولدي أن بندقيتك كان لها دور أكبر مما تخيلنا ، ويبدو أيضًا أن مسجدًا سيبنى هنا . . سيعرف الدهر اسمك يا ولدي» .

❀ ❀ ❀

(24)

هكذا جاءت التعليمات إلى السفارة الأمريكية في مصر . .

وهكذا نفذت تلـك العناصر فـي قسم شرطـة العطارين بعـد ظهر يوم الجمعة . .

بعض الصبية جاءوا حاملين لافتات معارضة . .

كانت هناك أيضًا الأحجار ، والمولوتوف ، وبالطبع الغوغاء . .

دقيقة بعد دقيقة زاد الزحام ليلتحم بالخارجين من صلاة الجمعة . .

ساعة تمر . .

واثنتان . .

قبل العصر انفجرت السمـاء بالأمطار وانفجرت الشوارع حول مسجد النبي دانيال . .

راقب مأمور القسم ما يحدث من ركن قصي يطل على المسجد . .

وحينما وجد الجموع تحاصر المسجد . .

وحينما لمح تلك الأشكال التـي تسربت من قلب الزحـام للمسجد ابتسم بعد أن تمت مهمتـه؛ (إلهاء ثم تسلل) هكذا جاءتـه التعليمات ، (لا نريد أن يعلم بنا أحد) وهكذا جاءه التحذير . .

التفت لينصرف فانصرفت روحه من ذلك الخنجر الذي انغرس في معدته دون أن يدري متى ولا كيف، وقبل أن تغمض عيناه رأى وجه قاتله فعرف أنه أحد الذين استأجرهم وقد أخطأ عنوان الضربة حتمًا!

❀ ❀ ❀

داخل المسجد هرعت ثلاثة أشكال متشحة بالسواد لغرفة إمام المسجد بحسب الوصف الذي وصفه ضابط أمن الدولة من قبل في رسالة إلكترونية..

دخلوا واستقبل دخولهم غرفة الإمام الخالية، همهمات لم يفهموها تأتي من أسفل منهم..

ضايقتهم وشعروا بانحباس النفس في صدورهم..

نزلوا السلم متوجسين..

الغرفة أسفل الضريح كانت مليئة بالمتشحين بالأبيض والأخضر..

الشيخ (سيد) يسند ظهره على العمود في منتصف الغرفة والمريدون من حوله..

كان الذكر في أعلى (حال) و(الحضرة) قد انتقلت من ساحة المسجد إلى الأسفل بقلب الضريح..

آخر ما سمعه الثلاثة صوت مزلاج الباب يغلق من خلفهم!

❀ ❀ ❀

(25)

إحساس طغى على (سكر) فتمكن..

إحساس بأن هذا الممر ينادي عليه وأن هذا الباب المغلق يمكن فتحه..

أفكار الكابتن جاءته متموجة تصطدم بعقله فعرف أي الممرات هذا وإلى أين يقود..

سار في الممر بضعة أمتار ووقف أمام الباب الدائري المغلق..

كتابات حادة الزوايا غير مفهومة المعنى على إطار الباب..

التفت للكابتن:

– «قل لي يا كابتن.. ما الذي يجعلني أصدق أن الشماليين هؤلاء أصدقاء وأن الزواحف أعداء؟ حتى الآن أنا لم أر أي خطر إلا ما تحكيه أنت لي!».

لم يهتم برد الكابتن وعاد بوجهه ثانية للباب المغلق..

ظاهريًا يستحيل فتحه لكن بداخله نداء أن الباب سيفتح له..

أسند يديه إلى الباب وأغمض عينيه – فعل هذا دون أن يفكر لمَ!

مشاهد تسارعت في ذهنه..

ذكريات الباب تندمج بعقله..

يحس بروابط عصبية جديدة تصل بين الخلايا في مخه..

شيئًا فشيئًا شعر بالباب يرتاح له وينسجمان، ومع الانسجام استرخت خلاياه..

علا صوت نبض قلبه وردده الجدران..

قلبه يكاد يقفز من صدره..

مع استمرار النبض بدأ الباب في الإضاءة المتقطعة..

الآن النبض يزداد وبقعة أسفل ظهره تشارك قلبه النبض..

فأخرى بمعدته..

منتصف صدره..

حلقه..

منتصف الجبهة..

أعلى رأسه..

الممر يرتج بالنبض أمام أعين الكابتن الدهشة..

الباب إطاره يضيء بجنون لكنه بعد لم يفتح..

هناك المزيد..

شعر بهذا (سكر)..

النبض المستعر في جسده يمتد حتى أسفل قدمه..

يشعر بالنبض يغوص عشرات الأمتار أسفل منه..

يصعد في جسده..

قلوب تنبض أسفل منه، وأخرى - الآن يحسها - فوق رأسه بأمتار، كأنما صارت له جذورًا في أعماق الأرض وأفرعًا في أعالي السماء..

القلوب التي تنبض ترتبط وتتواصل..

سيل الذكريات الذي يمر من البوابة لرأسه توقف في اللحظة ذاتها التي اشتعل فيها إحساس بالتفجر داخل عقله خروجًا من منتصف جبهته.. أو هكذا أحس!

الكابتن من ناحيته لم ير إلا هالة سكر وقد تداخلت الألوان فيها وتجسدت حتى شملت الغرفة كلها..

لكن سكر لم يكن معه بالمرة..

لقد توحد بالبوابة وغاب عنه..

وأخيرًا استجابت وانفتحت بهدوء..

❀ ❀ ❀

وقف (سكر) على الجانب الآخر من البوابة يلهث..

استنزفت البوابة طاقته تمامًا..

الرؤية مهزوزة أمام عينيه..

جسده كله يرتجف وينز عرقًا..

جلس مكانه يلتقط أنفاسه والكابتن - الذي عبر البوابة مترددًا- يقف بجواره..

دقائق ثم فتح عينيه يتأمل ما حوله..

ليس ثمَّة صحراء بيضاء كتلك التي شاهدها رفاقه - لا يعرف هو عنها شيئًا حتى الآن - ولكن صحراء صخرية حادة ينبض منها بشكل واضح شعور بالعدوانية..

البوابة كانت تفتح على ممر صخري بين جبلين شاهقين لا يمكن رؤية أقصى ارتفاع لهما..

المدى في الأفق غائم قليلًا، غير واضح، فيما عدا ذلك لا يوجد أي طريق آخر أمامهما..

تمتم الكابتن:

- «الآن أفهم سر لهفتهم عليك.. أنت يا صديقي فعلت ما عجز الشماليون عن فعله طيلة عمرهم!!».

ثم انفجر في الضحك وهو يكمل:

-«كل هذا التقدم الذي أذلونا به وقف عاجزًا أمام البوابة التي عبرت منها يا صديقي في دقائق..».

التفت (سكر) إليه يتأمله:

- «لا أفهم مما تقوله يا كابتن سوى شيء واحد؛ هؤلاء الشماليون - يخفون أكثر مما يبدون - حتى لك - وهذا يزيد من شكي فيهم.. لكن كل هذا لا يهم الآن».

ثم أكمل وهو يلتفت للممر الصخري أمامهما:

-«أتعرف يا كابتن؟ بالرغم من عدوانية تلك الصحراء فإن هاتفًا يدعوني للعبور إليها..

لا أظن أنك تود البقاء هنا وحدك يا كابتن أليس كذلك؟ تعال معي إذن».

قبل أن يتحركا نظر (سكر) خلفه للباب فوجده - كما توقع - قد أغلق، ولولا أنه يعرف بوجوده لما لاحظه من تداخله مع الطبيعة الصخرية للمكان..

- «طبيعي».

أجاب الكابتن نظرات (سكر).

«هذه بوابات عبور يا صديقي وليست باب حديقة منزلك».

توجه (سكر) ناحية البوابة ثانية..

كان يعرف أن الباب لن يستجيب له ثانية..

إحساس بداخله أنبأه..

يشعر أن نبع الطاقة بداخله قد جف من الجهد الذي بذله في فتح الباب..

وضع يده على الباب وأغمض عينيه محاولًا التركيز..

دقيقة ثم التفت للكابتن وهو يقول بصوت ضاحك:

- «أتعرف يا كابتن؟ أنا أصلًا لا أمتلك منزلًا بحديقة!».

ثم انفجر بالضحك أمام نظرات الكابتن الدهشة!

❀ ❀ ❀

(26)

كان الجو داخل الهودج خانقًا رطبًا، ولاحظ الثلاثة أن جدار الهودج مبطن بالصوف المرشوش بالمياه كخيام البدو.. أعطى (برنابا) أوامره بالتحرك فتحضر الثلاثة لاهتزاز الهودج بالصورة التي يعرفونها عن الجمال، وفاتهم أن حركة العظايا تختلف تمامًا عن حركة الجمال.. ما إن بدأت العظايا في التحرك حتى شعروا أنهم في قلب دوامة لا تهدأ..

الهودج يهتز دائريًا بزوايا حادة، في كل مرة يشعرون معها أنه سينقلب في زاوية مختلفة..

بضع دقائق وكان دوار أشد من دوار البحر ألف مرة قد أقضّ مجلسهم فأخرج لهم (برنابا) من جراب معلق داخل الهودج بعض الأعشاب حمراء اللون يمضغونها:

– «تحملوا مرارتها قليلًا وستشعرون بالتحسن». فأنستهم مرارتها أي دوار!

الباب الخلفي للقلعة يتفرع منه طريقان ممهدان، أحدهما ينزل بزاوية حادة جدًا أسفل الجبل والآخر يهبط بعرض الجبل تقريبًا..

شرح لهم (برنابا):

–«الطريق الأول للعظايا إن لم تكن تحمل الهوادج إذ تقدر على الهبوط الرأسي.. الآن سنسلك الطريق الثاني والذي سيضيف لوقتنا بضع ساعات لا مفر منها.. بعد الوصول للسهل أسفل الجبل سنسير للشمال بمحاذاة الجبل حتى نلتف حوله وصولًا للطريق الرئيسي الذي جئتم منه من قبل، بعد هذا يستقيم طريقنا رأسًا لقلب العاصفة وصولًا لنقطة التجمع..

المسافة التي سنقطعها بمحاذاة الجبل ستكون – بقليل من الحظ– فرصتكم للتدريب».

سأل (الشاعر) مندهشًا:

– «التدريب.. ألم يقل (السيد) أننا لسنا مؤهلين للقتال؟!».

– «قتال!! أي قتال؟».

أجاب (الشاعر) وهو يلوح بيديه دون معنى حقيقي:

– «التدريب لقتال تلك الـ.. الأجناس التي أخبرتمونا عنها.. أليس كذلك؟».

رد (برنابا) متعجبًا:

– «ومن الذي قال إننا ذاهبون للقتال؟! ثم كيف أصلًا تخيلتم التدرب على القتال هنا؟! أنت لم تحمل في حياتك السيف يومًا وتريد أن تقاتل الزواحف أو الشماليين!!».

بدا علـى (الشاعر) الحـرج وهو ينظـر (لبيدو) من طـرف خفي الذي ابتسم وأكمل عن صديقه:

– «يا سيد (برنابا) اعذر تأثرنا بثقافة السينمـا حينما يتدرب البطل على القتال في مشهدين أو ثلاثة».

كان التعجب على وجه (برنابا) متفجرًا:

«و.. لكـن.. مـا هـذه الـ..سينما التـي تتكلـم عنها؟ ومـاذا تقصد بالتدرب على القتال في مشهدين أو ثلاثة؟».

و قبل أن يكمل (بيـدو) أو (الشاعر) هز برنابة رأسـه وكأنما يطرد ما سمعه من عقله:

– «على كل حـال.. لا وقت لدينـا نضيعـه.. إن تدريبكـم سيبدأ في الحـال، وهو ليـس تدريبًا على القتال يـا سيد (بيدو) ويا سيـد (شاعر) بل تدريب على التنفس!!».

و قبل أن تتحول دهشتهم لأسئلة بادر مكملًا:

– «أنتم تذكرون تحذير (السيد) من سيطرة المشاعر عليكم أليس كذلك؟ عظيم، وتذكـرون أيضًا أن السيد وعـد بتعليمكم (التنفـس).. هنا التنفس خط فاصـل بين حياتك وموتـك ودونه لن تقـدر أصلًا أن تحمـل سيفًا.. أليس كذلك يا سيد (حديدي)؟!».

كاد الحديدي أن ينفجـر غاضبًا لـولا أن تذكر تحذيـر (السيد) من قبل فهمهـم بعبارات غيـر مفهومة وأشـاح بوجهه بعيدًا عن نظـرات (بيدو) و(الشاعر) الضاحكة..

انتظر (برنابا) قليلًا حتى يهدأ (الحديدي) ثم أكمل:

– «التنفـس هنـا ليس الغرض منـه إطالـة زمـن إمسـاك نفسك ولا التحكم فـي أعصابـك كما قد يخيـل إليكـم، بل هـو التحكم فـي وجودكم الروحاني!!».

لم يفـت (برنابا) ملاحظـة ردود الفعـل المختلفة على الثلاثـة؛ (بيدو) واندهاشه، (الشاعر) وتحمسه، (الحديدي) وهو يقلب عينيه سأمًا دون أن ينطق!

– «ما سأنقله لكم الآن هو نتاج خبـرات آلاف السنين، دفع فيها الكثير ثمنها من دمائهم وأرواحهم.. إن معرفة كيفية النجاة من الصحراء لم تأت إلا بعـد حصاد عشرات بـل مئـات الأرواح التي اجتهـدت للوصول لسر الصحـراء البيضاء.. أنت يا (حديـدي) تذوقت بعضًا مـن أسرارها حينما سقط السيـف من يدك.. أنتـم لا تتخيلـون أنفسكم في موقـف مشابه أمام الزواحف..

كما قلـت لكم؛ السر الـذي سأنقله لكم هـو الخط الفاصل بيـن الحياة أو الموت هنا في الصحراء فأقل القليل إذن يا سيد (حديدي) – قالها وهو يلتفت (للحديدي) وصوته يكتسب حزمًا مخيفًا – أن تظهر احترامًا لهؤلاء الذين نقلوا إلينا معارفهم كي لا نواجه ما واجهوه.. ولا تنسوا أيضًا أن الأقدمين لم يكونوا قد روضوا العظايا بعد..

العاصفـة التـي سنغوص فيهـا داخـل الهـودج وحمايتـه كانـوا يخوضونها على أقدامهم، حينما نقابلها ستفهمون ما أعنيه..

كان (السيد) هو أول من روض العظايا بمساعدة أسامة وهو أيضًا من عرّفنا أساليب النجاة التي عرّفه إياها الطوارق سادة الصحراء..

كيف تواصل معهم دون أن يصدوه، وكيف سمحوا لـه بمعرفة تلك الأسرار؟

لا أحد يعلم، وحتى يومنا لم يدخل مدينتهم (حاميم) إلا (السيد)، والذي حكاه لنا عن المدينة يجزم باستحالة القرب منها لا أن يدخلها..

الكثير من قبله حاولوا ذلك وكانت حياتهم ثمنًا للمحاولة..

يجب أن تعرفوا أن الطوارق هم بحق سادة الصحراء ومن دون معارفهم لم يكن لينجو أحد من الصحراء، من أجل هذا سعى الكثير إليهم، ولكن كما قلت لكم يستحيل تقريبًا الوصول لمدينتهم؛ لذا فمن وسط الآلاف الذين حاولوا التواصل مع الطوارق لم يكن إلا (السيد)..

الآن... قبل أن نبدأ أريد منكم أولًا الجلوس لبعض الوقت - ربما حتى نصل لأسفل الجبل- في صمت.. اطردوا كل الأفكار التي تأتيكم.. هيا ابدءوا!!».

حاول (الحديدي) أن يعلق ولكن (برنابا) كان قد أغلق عينيه وأراح رأسه على الجدار الرطب للهودج مستمتعًا بقطرات المياه المنسابة على وجهه..

❀ ❀ ❀

الآن انتبهوا لما حولهم..

أغلق (الشاعر) عينيه أولًا ثم (بيدو)..

وظل (الحديدي) لبرهة ناظرًا (برنابا) في غيظ قبل أن يغلق عينيه..

الجو داخل الهودج رطب خانق..

الحركة شبه الدائرية، وفي وسط دورانها وارتطام خلايا مخهم بجدران رءوسهم بدا وعيهم ينسحب..

شيئًا فشيئًا.....

ينتبهون الآن لصوت آخر يأتي من أسفلهم..

صوت ضعيف خافت في البداية، ثم زاد مع إنصاتهم وضوحًا..

دقات قلب العظاءة!!

سريعة متلاحقة ليس كدقات قلوبنا!!

ثم...

اتحدت دقات قلب العظاءة تلك مع أخرى تأتي من.......

شعروا كأنها تأتي من كل مكان حولهم......

هاتف داخلهم أخبرهم أنها دقات قلب (السيد) تأتيهم من قلب الجبل!

مع استغراقهم في النبضات المتواصلة سار الخدر في عقولهم..

كأنهم انتقلوا لعالم آخر..

فيض الذكريات الذي انهمر كان غير عادي..

منذ أتوا للصحراء لم يكن هناك وقت ليتأملوا حالهم ويفكروا فيه..

حتى وقت استضافتهم في الجبل كان التطلع والتنقيب فيما حولهم شاغلهم..

كيف جاءوا إلى هنا؟

كيف ولو للحظة يمكن أن يتخيل أحد هذه الأحداث؟

اختفاء (سكر) وتلك المصادفة التي يحكم العقل باستحالتها!

مَن يهديه تفكيره إلى يوم دون سائر الأيام وإلى ساعة دون سائر الساعات وإلى منطقة بعينها دون سائر بقاع الأرض وإلى (سكر) دون غيره من البشر وإلى عصا طاقة قادمة من التبت دون سائر الأدوات وإلى محاولة سحرية دون سائر المحاولات - فتلتقي كل تلك المصادفات معًا كأنها على موعد مع الزمان، موعد مقدر ربما منذ آلاف السنين؟!

ثم التحقيق معهم..

مسجد النبي دانيال وتاريخه غير العادي..

الشيخ (سيد) والغرفة أسفل الضريح..

البوابة والهرم تحت الأرض..

الصحراء البيضاء..

وأنفاسهم تتلاحق.... .....

المزيد من الأفكار..

صداقتهم عبر النت منذ سنين..

صدورهم تضيق..

اختلافاتهم..

اتفاقاتهم..

كم من مرة وصل الخلاف بين (الشاعر) و(الحديدي) لأقصى الحدود!!

العرق يغمر خلايا أجسادهم..

بدت رئاتهم كأنبوب ضيق يحارب كي لا تخرج أنفاسهم منه..

ألم مع كل شهيق..

ألم مع كل زفير..

ألم مع كل فكرة..

الأفكار تسيل من عقولهم مع بدء نزف العيون..

ثم الأنوف..

....

ثم جباههم تصطدم بأرضية الهودج و(برنابا) يقول:

- «أحسب أني طلبت منكم طرد الأفكار ليس الاستسلام لها».

❀ ❀ ❀

كلماته كانت كالماء البارد الذي أفاقهم من الخدر..

لم يزل الهودج كما هو بهوائه الخانق..

ولم تزل الغطاءة تسير بوتيرتها الدائرية ذات الزوايا الحادة..

قال (برنابا):

- «كان لا بد من تذوق طعم (سيلان الأفكار) الذي حذرناكم منه من قبل، لو كنتم وحدكم لنزفت أفكاركم وأرواحكم حتى الموت.. كلما أسرعتم بتقبل واقعكم الآن زادت فرصكم.. يمكن بالطبع تخيل حالة الأقدمين وكيف نزفت عقولهم حتى الموت..

أي مصير بشع عاشوه!

أنت يا (حديدي) ذقت من قبل طعم انفلات مشاعرك حتى سقط السيف من يدك قبل حتى أن يبدأ السيد في هجومه.. أنت لم تكن تشكل خطرًا إلا على نفسك وقتها..

كلكم شاهد ما حدث..

و الآن أنتم كلكم ذقتم طعم سيلان الأفكار..

إن الأمر خطير جدًا، ليست المشكلة في قدرتك على مواجهة الخطر، بل المشكلة في قدرتك على ضبط (روحك) وسط هذا الوسط العجيب..

الصحراء البيضاء يا سادة لها شخصيتها - صدقوا هذا أو كذبوه - ولا مجال على الإطلاق للتعامل مع هذه القاعدة باستخفاف، لهذا ندرب أنفسنا جيدًا داخل الجبل. وهو بالمناسبة المكان الوحيد المستقل عن الصحراء..

أي سر هذا الذي وضعه فيه مقيطام الحكيم؟! وكيف وضعه؟ لا نعلم.

كل ما نعلمه أن الجبل في (صفنا) وأن الصحراء البيضاء......

ماذا أقول لكم؟ الصحراء البيضاء ليست صحراء عادية بل كائنًا حيًّا!!

كائن حي يغضب أحيانًا وغضبته مرعبة.. غضبته تتجلى أكثر ما تتجلى في العواصف كتلك التي نتجه رأسًا لقلب إحداها!».

❀ ❀ ❀

نعم هم اعتادوا الدهشة وعلى كل ما يثير تعجبهم ولكن صحراء حية تغضب!

كان هذا فوق تحملهم..

ما تفجر من دهشتهم كان كذلك فوق احتمال العظاءة التي قفزت في السماء لعشرات الأمتار وهي تفح بصوت خرق آذانهم..

زأر (برنابا) فوق الضجيج بلغة لم يفهموها وهو يمسك في مقعدة بشدة حتى كادت أصابعه تخترق الخشب..

كانت أوامره للعظاءة شديدة حتى أنها سكنت فجأة وألصقت بطنها في الأرض وقد أغمضت عينيها، ثم التفت ناحيتهم وهو يقول بصوت بذل فيه أقصى ما يملك من تحكم في النفس:

- «كم مرة أحتاج أن أحذركم؟ ربما لا أكون موجودًا حولكم في المرة القادمة.. لآخر مرة أخبركم.. بل هذه المرة سأكون أكثر صراحة.. من ينفعل منكم بعد هذا سيتبعنا مشيًا على الأقدام!».

الفزع في أعين الثلاثة تلاشى مع كلامه..

بشكل ما فزعهم من مصير المشي في الصحراء على الأقدام فاق فزعهم من اضطراب العظاءة..

ساعدهم هذا على تملك زمام أنفسهم للمرة الأولى!

كيف ساهم خوفهم في تمالك الزمام؟

لم يفهموا..

تركوا الفهم خلفهم من هذه اللحظة..

لا مجال له على الإطلاق..

أدركت العظاءة هذا أيضًا فرفعت بطنها عن الأرض وأكملت المسير مع أمر (برنابا) لها بتلك اللغة غير المفهومة رغم عدم غرابة مخارجها في آذانهم..

سألهم (برنابا) بصوت حازم جدًا:

- «أنتم شاهدتم عاصفة في المحيط كما قلتم (للسيد) من قبل، أليس كذلك؟».

أومئوا برءوسهم بالإيجاب دون أن ينطقوا..

الكلام صار له حساب الآن..

- «عظيم، هذا يساعد على تقبلكم للأمر فعاصفة الصحراء التي سنمر بها هي ذاتها التي شاهدتموها تحدث في المحيطات، والرمال كما قد قيل

لكم هي بديل المياه.. العظاءة تقدر على الغوص في بحر الرمال بالإضافة طبعًا للطفو علـى سطحه- إن كان هادئًا- والهـودج سيمنع دخول الرمال إلينا ولكنه كذلك سيمنع دخول الهـواء إلينا.. كمية الهواء في الهودج ربما تـدوم ساعـة أو اثنتين ولكننـا سنخوض في قلـب العاصفة فـوق اليوم أو الاثنين لذا سيكون عليكـم تعلم طريقة التنفس وتطبيقهـا في نفس الوقت.. للأسف ليس أمامكـم وقت للتدريب والتعلم من الأخطـــاء..إن تدريبكـم ليس له إلا نتيجة من اثنتيـن.. النجـاة أو الموت اختناقًا!».

❀❀❀

(27)

وصل الكابتن (بارد) و(سكر) لنهاية الممر بين الجبلين..

كانت المسافة أطول مما توقع (سكر)، ربمـا ساروا نصف يوم أو أكثر - بمقاييس اليوم العاديـة.. الصحراء الصخرية بعد الممـر تمتد إلى ما لا نهاية من كل الجوانب ولا دليل على الإطلاق لأي ناحية يتجهون..

نظر الكابتن معاتبًا (سكر):

- «الآن.. إلى أين أيها العبقري؟».

لم يرد (سكر) علـى سؤاله، وكهف ما في نهايـة الجبل لفت نظره، ثم التفت إليه مبتسمًا:

-«الآن؟ الآن نرتـاح طبعًا يا كابتن.. سننام في هـذا الكهف.. تعال معي!».

من جديد لم يجـد الكابتن سبيـلًا للمقاومة مـع إحساس (الشـد) خلف (سكر) كأنه مربوط بحبل سميك..

لم يكن بالكهـف أي شيء غير عـادي، فاتخذا ركنًا قصيًـا غير ظاهر فيـه، ولم تمر ساعـة إلا وكانـا قد استغرقـا في النـوم بعد أن بلـغ التعب والإرهاق بهما مبلغه..

و كان النوم موعد (سكر) للقائه الأول مع(الباز الأشهب)!

❀❀❀

(28)

الحركة الدائرية أرهقت أجسادهم ولم يعتدوها بعد..

فكرة التدريب كذلك زادت من قلقهم وخوفهم من العاصفة..

الرطوبة داخل الهودج خنقت أنفاسهم حتى قبل هبوب العاصفة، وزاد من هذا رفض (برنابا) التام فتح الكوة لئلا يمتلئ الهودج بالرمال..

بعد بضع ساعات شعروا بتغير حركة العظاءة إذ هبطت ببطنها لأسفل حتى التصقت في الرمال وهي تسير.. همس (برنابا) على إثر تغير حركتها بصوت بالكاد يسمعونه:

- «العظاءة استشعرت قرب هبوب العاصفة.. تذكروا ما تدربتم عليه جيدًا».

ثم سكت ثواني قليلة مميلًا أذنه ناحية جدار الهودج ينصت لأصوات الهواء في الخارج قبل أن يكمل متلفتًا إليهم:

«توكلنا على الله».

❀ ❀ ❀

البداية كان هذا الصوت الذي ارتطم بباطن أدمغتهم قبل آذانهم..

الكل كان متهيئًا لصوت محيط هادر..

الصورة التي رسمتها عقولهم لم تبعد كثيرًا عن هذا..

حياتهم في عالمهم أسقت عقولهم صورًا قديمة لمحيطات هادرة..

لكن ما قابل آذانهم في هذا العالم لم يكن فقط مخالفًا لتلك الصور المنطبعة، بل كان مدمرًا أيضًا لرباطة جأشهم تمامًا ومن أول لحظة..

مئات بل آلاف التفجيرات..

صوت سيلان الرمال متضخم آلاف المرات..

ارتفاع الكتل الصخرية للجبال في الهواء ثم صوت انهيارها وتفجرها بجوارهم والعظاءة تناورها ببراعة غير متوقعة..

انفتحت الكوة لثانية أو ثانيتين قبل أن يغلقها (برنابا) كانتا كافيتين ليلمح (الشاعر) منها ما ينتظرهم على بعد..

الآن فهم سر البقع البيضاء والصفراء التي رآها عند مدخل الكهف من قبل..

لم يكن إلا تداخل لون السماء مع الصحراء؛ السماء الصفراء مع الصحراء البيضاء..

ثانية أو ثانيتان كانتا تكفيان تمامًا ليعرف أنهم بعد لم يقابلوا العاصفة، بل مقدماتها!

زادت العظاءة من سرعتها وكأنما تحن لمقابلة العاصفة، ثم قفزت فجأة في الهواء مرتفعة عشرات الأمتار كحوت أزرق هائل الحجم يقفز مستعدًا لغوص يشتاق إليه في باطن المحيط..

استقبلت الرمال البيضاء رأس العظاءة الهابطة كالسهم..

شعروا – دونما أن يروا بأعينهم – بلحظة الارتطام..

انساحت الرمـال كالميـاه تاركة العظـاءة تغوص في باطـن الأرض وعلى الفور ملأ أعينهم ظلام معتم..

ظلام لا يترك مجالًا لأي إحساس بداخلك إلا اجتاحه..

ظلام تخللت عتمته حتى خلاياهم..

الضغط تغير عند مرور العظاءة لباطن الأرض إلى ما دون الإدراك في لحظة..

هكذا تتابعـت الأحاسيس؛ ظلمة في الهودج فظلمـــة داخلهم فآلام لا تحتمل بآذانهم..

لم يخبرهم (برنابا) عن كل هذا بل اكتفـى بتدريبهم وفهموا هم لمَ أخفى عنهم حقيقة التجربة..

الفزع من تأثير الفـزع تغلب ثانية علـى خوفهم وأخـرج من عقولهم الاندماج معه والاستسلام له..

العظاءة تستمر في الغوص أسفل محيط الرمال..

الهواء يفر من الهودج..

الضغط يزداد..

الآن... .إما أن يطبقوا ما تدربوا عليه مـع (برنابا) منذ ساعات أثناء نزولهم من الجبل، وإما فليختنقوا واحدًا بعد الآخر..

وكان (الشاعـر) أول مـن أغمض عينيـه مطبقًـا أول خطوة من التدريبات..

❀ ❀ ❀

صـوت (برنابا) يمـلأ عقولهم وهـم يتذكرونـه كما ملأ الهـودج وهم يسمعونه منذ ساعات في بداية تدريبهم..

«في البدء تغلق عينيك».

لكن (الظلام المعتم) قد سبقهم..

يذكـرون الآن كلام (السيـد) عـن الرؤيـة المعتمـة التـي تتميز بها العظاءة..

صوت (برنابا) من جديد في عقولهم:

«أنت اعتدت على ظلام عينيك فـلا تسمح بالظلام المعتـم أن يتسرب داخلك من بوابة عينيك.. اسبقه أنت بظلامك الخاص».

أغلق (الشاعر) عينيه فشعـر بألفة ظلامها عن ذلك الذي أغرق الهودج وكاد يغرق خلاياه..

«ليلمس طـرف لسانك سقف حلقـك.. نعم.. رددوا خلفـي (الله).. رددوها ولاحظوا أين يلامس حرف اللام سقف حلقك».

ابتسم (الشاعر) وقـد تلاقت خبـرات حياته في التصـوف والطاقة مع كلام برنابا؛ تمرينات التأمل، التـي يسمون وضع اللسان هذا فيها بالوضع اليوجي، وحلق الذكر عند النقشبندية حيث وضع اللسان في ذات الموضع متأملًا قلبك مرددًا في سرّك (الله)..

ما السر في حرف اللام هذا ومخرجه؟ لا يعرف..

صوت (برنابا) من جديد:

«أنـا الآن أجلـس أمامكم..أطلقوا لخيالكـم العنان وتأكـدوا أن كل تفاصيل جسدي واضحة في مخيلتكم رغم انغلاق الأعين».

شعر (الشاعر) (بيبدو) يبتسم لتوتر (الحديدي)، وشعر (بيدو) بإدراك (الشاعر) له، لكن الإحساس عند كليهما كان كالفكرة التي تفاجئ المرء ثم تختفي تاركة الإحساس خلفها بوجود شيء ما عالق!

شعرت العظاءة كذلك بتوتر (الحديدي) ولكن برنابا كان مسيطرًا:

– «يا سيد (حديدي) أنت في أمان معي، لا تجعل انعدام الرؤية يقلقك.. تعلم أن تثق فيمن معك وإلا فلن تعيش في هذا العالم سوى لحظات».

كان صوت (برنابا) هامسًا داخل الهودج، صاخبًا في آذانهم مع انعدام الرؤية، وساعد صوته المخترق على تجسد صورته أكثر أمامهم..

«الآن... إذا تجسدت صورتي أمامكم و(تمثّلت) ثقوا ساعتها أنها تجسدت بالفعل وليس تخيلا.. هنا في الصحراء لا فارق بين التخيل والتمثل.. أريدكم أن تتابعوا أدق التفاصيل؛ ملابسي، سيفي، شكلي.. كل التفاصيل الممكنة – يساعد هذا على «التمثل» أكثر..

إذا تأكدتم من (التمثل) فانقلوا تركيزكم إلى صدري؛ إلى حركته مع التنفس، ثم إلى قلبي..

ركزوا أكثر وستسمعون دقات قلبي..

ركزوا معها واصرفوا إليها انتباهكم بالكامل..

املئوا بها آذانكم..

ثقوا أنكم ستسمعونها وستكون كدق الطبل لا أقل..

حينما يحدث هذا يكون (الاتصال) قد بدأ!».

❀ ❀ ❀

دق الطبل يملأ آذانهم..

وسط هدير المحيط الذي يغوصون في باطنه يسمعون قلب (برنابا) كدق الطبل!!

النبض يخترق هواء الهودج المتبقي..

النبضة ترج بواطنهم رجًا، ويظل طنينها عالقًا بينهم حتى تأتي النبضة التالية..

لوهلة أخرجتهم الدهشة من تركيزهم فتشوشت صورة (برنابا) أمام أعينهم..

و كما كان آخر من يغلق عينيه كان (الحديدي) أول من فتحها بعد تشوش الصورة..

ما قابل أعينهم كان ظلامًا معتمًا كما وصف (السيد) من قبل..

ظلام يخترقك حتى النخاع..

ظلام غير مألوف للعقول ويصيبها بالارتباك فتتوقف عن العمل..

ومع توقف الاتصال تعود الحواس..

صوت الصحراء المتفجر من فوقهم ومن حولهم ومن أسفل منهم..

العظاءة تسبح في قلب أتون من الانفجارات..

الهواء – على قلته – بدا مرتجفًا فزعًا..

فلم تكن عودة عيونهم للانغلاق اختيارًا على الإطلاق.

❀ ❀ ❀

يتذكرون صوت (برنابا) من جديد:

– «تروننني أمامكم..

تلاحظون تفاصيلي..

تسمعون نبضات قلبي..

الآن تندمجون معها..

حان الوقت للاتصال بيننا..

اجعلوا دقات قلوبكم تدق معي.. اضبطوها على ما تسمعونه مني..

ليس هذا مستحيلًا هنا..

ركزوا أكثر وتحكموا في قلوبكم أكثر وأكثر..

إذا نجحتم صرتم ساعتها مستعدين لإتمام الاتصال».

ومع انغلاق أعينهم وعودة التركيز عادت النبضات لآذانهم..

يسمعون الآن نبضاتهم مع نبضات (برنابا)..

انتبهوا لاختلافها..

ليست نبضاته كباقي القلوب..

نبضة طويلة..

هادئة..

لها ذيول صوتية تطن في المدى بين النبضة والأخرى..

نبضاتهم السريعة المتلاحقة كالنشاز وسط نبضاته..

ومع انتباههم هدأت رويدًا رويدًا..

جعلوا نبضاته مرشدة لقلوبهم..

الهدوء يعمهم..

كل نبضة تأخذهم لبواطنهم أكثر وتبعدهم أكثر فأكثر عن الواقع من حولهم..

«بعد توحد قلوبنا أريد لذواتكم كذلك أن تتوحد بذاتي..

لسنا جماعة ولكنا فرد واحد..

الوجود كله واحد أصلًا..

ادمجوا أنفسكم فيَّ».

التقت ابتسامة (الشاعر) و(بيدو) وقد تذكرا ثورة (الحديدي) أول ما سمع هذا الكلام أثناء التدريب:

«كنت أعلم أننا سنصل لترهات وخزعبلات الصوفية هذه ثانية.. كنت.............».

و لكن كان لسيف (برنابا) القول الفصل..

متى خرج من غمده؟

متى تحرك؟

و متى وقف على طرف عنق (الحديدي)؟

لم يعلما أبدًا، وكذا لم يعلما كيف شعرا بانسجام فعل (برنابا) مع الكون من حولهما حتى بدا كجزء لا يتجزأ منه!

ما يعلمانه أن صوت (برنابا) حسم الأمر:

- «لا يطلب منك أحد إلا الصمت يا سيد (حديدي).. لن يجبرك أحد على فعل ما لا تريده، ولن يمنعك أحد أيضًا من فعله وقتما تضطر لهذا».

شعروا باضطراب العظاءة لاضطراب الموقف لكن (برنابا) كان في قمة سيطرته عليها، وأكمل كأن شيئًا لم يكن:

- «حين تتحد ذواتنا ولا يعود أحد منكم يرى إلا من خلالي نكون قد نجونا.. ستعلمون ساعتها كيف فلا معنى لشرحي الآن أكثر من هذا».

❀ ❀ ❀

النبضات كنغمة واحدة..

دقة خلف دقة..

لا هودج يحيطهم..

لا صحراء ثائرة من حولهم..

لا عظاءة تحملهم..

فقط (برنابا) وقلبه وقلوبهم..

(برنابا) الآن أوضح..

أكثر تمثلًا..

ينظر إليهم ويبتسم..

ليسوا الآن داخل الهودج..

بل ليس حتى الفراغ بين أرجاء الكون والمدى..

تواصلت قلوبهم بقلبه أكثر فأكثر..

لم يعد (برنابا) واضحًا بل هم!

عيونهم المغلقة تراهم!!

ذواتهم منفصلة كلية عن أجسادهم الساكنة أمامهم..

يغمضون أعينهم أكثر، الآن صار لـ(أكثر) معنى أعمق، ولم يعد إغلاق الأعين مرادفًا لغلق الجفن بقوة بل غلقًا للداخل..

عيون ذواتهم تنظر للداخل..

غابت أجسادهم عن النظر..

قلوبهم تترابط أكثر مع قلب (برنابا) وضوء دافئ يغمرهم..

ضوء له ملمس تشعره أرواحهم..

ليسوا في الهودج بل في القلعة..

بل في المسجد فوق القلعة..

في خلوة (السيد) الجالس مطرقًا في منتصفها..

يجلسون أمامه..

يسمعون نبض قلبه فيأتيهم الإدراك على الفور؛ من نبضه يستمد (برنابا) إليهم..

يملأ نبض (السيد) الأفق حتى يصل للعظايا في باطن الأرض حيث غاصت فتهدأ وتطمئن وسط البحر المتفجر من الرمال..

يحتضن ذواتهم بقلبه فتدفأ وترتاح من عناء الطريق..

رحلتهم الطويلة من الملاحات حتى حضورهم أمامه صارت ذكرى هادئة..

الزمن توقف عن السير ودار من حولهم..

(الحديدي) هدأ توتره مع إحساسه (بالسيد) ممسكًا كتفه بقوة..

تناسبت قوة (السيد) مع ثورة (الحديدي) وانسجمت..

آن له أخيرًا - ولو مرة في عمره - أن يهدأ ويترك خططه وهواجسه..

(الشاعر) دار مع الزمان ثم أحس (بالسيد) يدفعه للأمام دفعًا، وبرغم إحساس الدوران كان أيضًا يسير للأمام، اجتمع الإحساسان داخله..

اخترق مع قلب (السيد) آفاقًا وأكوانًا..

بيت ما يظهر في الأفق في وسط مدينة بسيطة..

يعرف بداخله أنها (طنطا)..

جلسا معًا على سطح البيت وكان (للسيد) (سيدٌ) آخر يجلس معهما ملأ حضوره حضورهما وزاده (بسطًا)..

(بيدو) سافر في غياهب ذكريات لم يفهمها أولًا ثم أدرك أنها ذكريات الصحراء..

لم يكن يخترق حواجز الذكرى بل يسيل معها..

الصحراء البيضاء تبدو أكثر شبابًا..

يتهادى من فوقها منسجمًا أكثر وأكثر..

يرى العظايا تسبح في باطن الصحراء..

الصحراء تبدو أكثر كبحر رائق عذب..

نبضات العظايا مختلفة..

متداخلة كنوتات الموسيقى..

ليس الزمان (الآن) وليست نفس العظايا التي ركبوها بل أخرى ضخمة مهولة الحجم..

رائعة الجمال..

أجملهم وأكبرهم كانت في المقدمة..

سمع نبضها بوضوح، ورأى قلوب (بناتها) تتعلق بها..

تطوف بهم في الصحراء وتدور كمودع لأهله وبلده قبل فراقه الأخير..

يسمع من بعيد فحيحًا حادًا، ويرى بقعة ضوء تتكون..

العظاءة الأم تقترب منها استعدادًا لفراق أخير..

يلمح أكثر بقعة الضوء فيرى من خلفها صورًا من عالمه الذي يعرفه..

يرى قرية ما..

حقولًا ما..

هاتف بداخله ينبئه أن تلك الأرض من بلاده وإن كان لم يتميزها أول الأمر.. ثم صوت فلاح ما وهو يصيح من الدهشة!

العظاءة تغير شكلها قبل أن تخترق بقعة الضوء وتعود لهيئتها المنفرة..

الفحيح يكاد يخرق أذنه ويمزقها..

اختفت بقعة الضوء باختفاء العظاءة داخلها..

أنّت بناتها وبكت..

ومع بكائها أيقظهم (برنابا):

- «إن لكم أن تفخروا بأنفسكم؛ يومان كاملان في أول اتصال لكم!»

❀ ❀ ❀

(29)

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: قرأت في بعض الكتب الواردة من القاهرة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهرت دابة من البحر عجيبة الخلقة من بحر النيل إلى أرض المنوفية، بين بلاد منية مسعود واصطباري والراهب.

في فمها ثمانية وأربعون ضرسًا وسنًّا مثل بيادق الشطرنج، وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ومن ركبتيها إلى حافرها مثل بطن الثعبان، أصفر مجعد، ودور حافرها بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدمًا.

حمل جلدها على خمسة جمال في مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل وأحضروه بين يدي السلطان بالقلعة وحشوه تبنًا وأقاموه بين يديه والله أعلم.

❀ ❀ ❀

(30)

بين اليقظة والمنام..

بين الواقع والخيال..

يحلم ولكن حلم له وعيه الخاص..

عرف (سكر) أنه يحلم، وأنه في صحراء أخرى غريبة عنه لكنه يألفها بشكل ما..

يسير فيها كمن اعتاد سبر أغوارها كل يوم..

صاحبه في السير يعرفه ولا يتمكن من النظر إليه..

أفعاله أفعال من يحلم..

المعرفة بما ومَن حوله تملأ كيانه كأي حالم وجد نفسه في منتصف الحلم فجأة..

أكّد لنفسه:

- «لكني لست أحلم، وإلا استيقظت مع تنبهي أني أحلم».

كل خطوة تغوص به في أغوار تاريخ سحيق..

شعور بالأمان مع صاحبه يزداد فيلتفت إليه..

يقدر الآن أن يلتفت إليه..

كيف عرف أنه صلاح الدين؟

كيف عرف أنه مرشده لوجهته؟

لا يدري..

اليد المربتة على ظهره تدعوه للمضي قدمًا تجاه مسجد شامخ في طرف الصحراء..

رجال يخرجون من المسجد واحدًا تلو الآخر، الأنوار تحيط بهم ويقفون في سلسلة طويلة تبدأ عند باب المسجد بل من قلبه واصلة إلى صلاح الدين..

سبقه صلاح الدين بخطوتين يستقبل آخر رجال السلسلة..

التفت إليه مبتسمًا فعرف أن مقصوده في انتظاره داخل المسجد..

مرّ بجوار الرجال فلمح شاراتهم الخضراء تزينهم..

كل رجل يرجع به خطوة في الزمان..

يسلم عليه ويسلمه يدًا بيد لمن بعده..

الدفء يملأ منتصف صدره..

شعور بأن أحدًا ينظر إليه من قلب المسجد نظرة احتوته وهو يتحرك فلم ينتبه أن صلاح الدين وقف آخر السلسلة وتركه يتقدم..

الصحراء من حوله تتلاشى ويملأ عينيه بدلًا منها جدران حارة عربية قديمة..

الجدران تناديه وتحدثه..

هو في العراق والحارة حارة (باب الشيخ)..

تحسس الجدران شوقًا لملمس الحجر القديم المعبق بأحمال السنين فتاه للحظات عن سيره ومقصده..

تأتيه جلبة من أقصى الحارة تعيد إليه تنبهه..

الفوضى تسود سكان الحارة..

يسمع همسهم القلق..

«بيت المقدس سقط»

«أنطاكية كذلك»

«ثغور الشام تتداعى كلها»

«صراع السلاجقة والأتراك على عاصمة الخلافة»

«الحشاشون يسممون البلاد بمؤامراتهم»

«الحسن بن الصباح في معبده بقلب الجبل وسمته المشوه كسمت الزواحف!»..

يسير في قلب الحارة أكثر فتتغير الحوائط..

حارة أخرى وزمان آخر..

هو الآن بقلب فلسطين..

فرسان يتخطوه دون التفات إليه..

حراملهم الزرقاء يزينها صليب ذهبي كبير..

هاتف يناديه أن (اتبعهم)، فيفعل..

الناس تفسح الطريق خوفًا منهم..

الكنيسة العظيمة في الأفق يتجاوزون بابها إلى آخر صغير خفي بإحدى جوانبها مختبئ أسفل سلم ضخم ولا يتميز عن الحجارة المحيطة به لعين الناظر غير الخبير..

سرداب حجري يغوص في قلب الأرض..

معبد تحت الكنيسة مخبأ في حنايا الصخور..

(فرسان الهيكل) أمام محراب حجري يرتشفون كأسًا امتلأت بدماء ضحاياهم يدنسون به قداسة الكنيسة فوقهم وروحانيتها.

يتناوبونه حتى يفرغ..

باب آخر خلف المذبح يفتح على غرفة مظلمة تفوح بالخُبث والخَبث..

يسري الرعب في دمه من الرائحة المتسربة إلى خلاياه..

قدمه تنغرز في الأرض فلا يقدر أن يحركها..

يود أن يصرخ فتتيبس عضلات فكه..

الجالس بقلب الظلام ينظر إليه بعين واحدة تنبض شرًا ومكرًا..

الفرسان من حوله راكعون لا يشعرون بمن ينظر إليه سيدهم..

لا يعرفون بوجوده – هو مجرد حلم!

الرعب يجمد مفاصله ويوجع قلبه وإصبع الرجل ترتفع من على مسند الكرسي وتشير إليه أن (تعال إليّ)!

تنفك عقدة مفاصله ولا ينفك إسار حلقه ليصرخ..

خطوة تلو خطوة تجاه الغرفة وقلبها النابض بظلام كريه الرائحة يفزعه..

يعلم أنه إذا دخلها فلن يخرج ثانية..

لن يرى نورًا أبدًا..

الفرسان ينتبهون إليه الآن لا يعلم كيف!

يرى نظرات التعجب على أعينهم..

لا مفر..

هو الآن على باب الحجرة ثم..................

تلك الجلبة الآتية من فوق الأرض!

صياح وعراك هناك في الأعلى..

تأتيه الكلمات المتناثرة..

«جيوش صلاح.. جيوش صلاح»

«لا مفر.. اهربوا»

الدفء يملأ صدره من جديد..

(النظرة) التي استغرقته من قبل تملأ خلاياه ثانية..

يشعرها تأتيه من أطراف العراق، من قلب المسجد..

يتقدم بثبات هذه المرة..

يتقدم متعمدًا حتى إذا دخل الغرفة أمسك بابها – المفتوح للداخل– وأغلقه على من بها رغم الصراخ الغاضب الشنيع..

في الأعلى لمح صلاح الدين على فرسه كالأسد يهدر في قلب الأمواج من البشر والأسلحة والدماء..

يحيط بـه رجال السلسلة الذين رآهم من قبل عند المسجد بأوشحتهم الخضراء دون أن يلمحهم غيره..

إذا ضرب صلاح ضربوا معه..

إذا صرخ صرخوا معه..

إذا كبّر كبّروا معه..

فلما اقتحم اقتحموا معه..

و في وسط المحيط الهادر من السيوف والرماح والرجال التفت إليه صائحًا:

– «الباز في انتظارك»

الحوائط القديمة من جديد وباب المسجد مفتوح في انتظاره..

ليس بالمسجد سوى (الباز) جالسًا في وسطه متربعًا على الأرض ينتظره..

لحيته ووجهه الأبيضان يملآن روحه..

عينه الثاقبة تخترقه..

عين (باز أشهب) تنقض على نكات سوداء لم تزل عالقة في قلبه فتصطادها..

شعور الدفء والطمأنينة يملآن قلبه أكثر فأكثر يستعيد معهما كل ما مرّ به وكل ما لمحه، فيبدأ يفهم..

البوابة عند الملاحات – وهو يغلق باب حجرة المعبد..

الغرفة الغريبة التي استيقظ فيها – وهو يغلق باب حجرة المعبد..

الرماديون.. الكابتن.. الممرات القديمة – وهو يغلق باب حجرة المعبد..

ممرات دولسي والغرفة الدائرية – وهو يغلق باب حجرة المعبد..

ممر الزواحف والصحراء من خلفه – وهو يغلق باب حجرة المعبد..

الباب الصغير بالكنيسة – وهو يغلق باب حجرة المعبد..

المسجد من جديد ونظرات الباز الأشهب تفوح مسكًا..

الآن يفهم..

الآن يعرف دوره..

سمع الكابتن يناديه ليوقظه..

يفتح عينيه قائلًا بلا تردد:

– «الآن أعرف يا كابتن لم جئتُ هنا!».

وترك نظرات الكابتن الحائرة دون رد..

ليس هو مفتاحًا لفتح البوابات بل لغلقها..

و رغم الاستيقاظ لم يزل تحت تأثير نظرة الباز الأشهب..

لم تزل تربيتة صلاح على ظهره تدفئه وتطمئنه..

لم يزل يشعر برجال السلسلة من حوله وإن لم يرهم..

أجناس وبواباتها..

يأتيه الهتاف في صدره «هم أربعة»..

بوابات أربعة عليه غلقها تمامًا..

لا يجوز لأحد من بعده أن يعبرها أبدًا..

طريق طويل عليه سبر أغواره..

لكنه ليس وحده..

يأتيه الآن نبض (السيد) من بعيد جدًا..

أول مرة يتعرف عليه..

يأتيه نبض رفاقه مع السيد وآخرين، فيعرف أنهم أتوا خلفه..

لا يشغل باله كيف جاءوا..

وجودهم يأتيه محملًا بعبق وجود آخر..

مسك آخر غير الذي فاح في عروقه بحضرة الباز..

سلسلة أخرى برجالها تأتي مع أصحابه..

هم هنا جميعًا للهدف ذاته ويجب أن يلتقوا ليحققوه..

❀ ❀ ❀

(31)

لدقيقة أو دقيقتين ظل الثلاثة مطرقي رءوسهم بلا حركة أو كلام..

لم يزل صدى الاتصال يدوي في نفوسهم..

أعطاهم (برنابا) بعض المياه وهو يقول مبتسمًا:

– «يومان بلا ماء وبا هواء.. لا تظنوا أن هذا بلا ثمن يا أصدقائي.. هيا، اشربوا قليلًا من الماء، اشربوا بهدوء بلا تعجل».

سكت قليلًا وهو يراقب أيديهم المرتعشة ترفع قراب المياه ثم أكمل:

– «أنا بالفعل فخور بكم.. هناك مزيج من الإرادة والنية الصادقة في إنقاذ صديقكم قلما أشاهده.. للأمانة توقعت أن نخسر أحدكم في الاتصال!»..

ربما قبل الاتصال كان وقع كلامه يأتي أشد ولكن الآن وبعد أن ذاقوا التجربة لم يعلق أحدهم واكتفوا بهز رءوسهم..

حلوقهم جافة..

أجسادهم مرهقة..

وعقولهم لم تزل تئن من وطأة الأحاسيس والدهشة..

«حينما تصفو عقولكم الحقوا بي في الأعلى.. ستحبون المشهد جدًا».

انتبهوا مع كلامه إنهم ليسوا في الهودج بل في غرفة حجرية ما على أسرة بدائية..

غلب فضولهم استنزاف أجسادهم وعقولهم فقاموا الواحد تلو الآخر..

باب الغرفة يطل على ممر دائري ضيق في آخره بأقصى اليمين سلم صعد بهم إلى سطح المبنى..

قلعة أخرى خمنوا أنها حتمًا نقطة التجمع التي تكلم عنها (السيد) قبل بدء التحرك..

على السطح كان (برنابا) وبعض الجنود عند السور فنادى عليهم:

– «قمتم بالفعل! جميل، تعالوا إذن».

وبخطوات يلجمها الدوار والإرهاق والنور الساطع الذي أعمى أعينهم اقتربوا من السور..

هم أتوا في قلب هودج على عظاءة تغوص في صحراء ثائرة فكان آخر ما تتوقعه عقولهم رؤية محيط بلا نهاية ماؤه أبيض رائق كالزجاج والعظايا تعوم وتغوص فيه في استمتاع بجوارها بعض الجنود، وأمام أعينهم الدهشة بادرهم (برنابا) وهو يبتسم:

– «الصحراء البيضاء تستعيد أنفاسها هي الأخرى! هل نسيتم ما قلته لكم من قبل! إن الصحراء البيضاء كائن حي بشكل أو بآخر – ربما هي حياة خارج نطاق عقولنا ولكنها حياة ولها وعيها الخاص!».

ابتسم مع نظرات الدهشة التي لم تزل عالقة على وجوههم ثم أكمل:

– «كما قلنا لكم، لسنا نعرف الكثير عن الصحراء البيضاء ولكننا تعلمنا كيفية التعامل معها وقبولها كما هي لا أكثر.. المشهد الذي ترونه أمامكم لم يره البعض منا مطلقًا، والبعض الآخر – مثلي – رآه مرة واحدة أو مرتين.. فقط بعد أن تكون الصحراء في أشد لحظات عصفها يمكننا أن نرى مثل هذا التحول العجيب في مادتها.. فسّر ذلك أحد قدمائنا بأنها مثل عملية تغيير الدماء للكائن الحي، فما بذلته الصحراء في ثورتها يستحيل تخيله؛ جبال بارتفاع آلاف الأمتار تفجرت وتناثرت في كل الأرجاء، وجبال أخرى نشأت مكانها وتكونت..

لحسن الحظ أن جبل مقيطام وضعه مختلف..

يظن بعضنا أن بناءه من نفس مادة الصحراء وكذا هذه القلاع التي اتخذناها نقاط مراقبة وتجمع.....»

قطع كلامه إشارة أحد الجنود الواقفين على السور إليه..

كان يشير للأفق فاقترب (برنابا) من السور ثانية مدققًا النظر قبل أن يقول:

– «عظيم.. إن (السيد) في طريقه إلينا».

سأله الشاعر:

– «إذن هو لم يفارق الخلوة كما شاهدنا في الاتصال؟».

ثم انتبه إلى أنه يتكلم بلسان الجميع دون أن تأتيه الفرصة لسؤالهم عن تجربتهم الشخصية مع الاتصال فأكمل:

- «افترض أن الكل شاهد (السيد) مثلي في الخلوة.. أليس كذلك؟».

أومأ الحديدي و(بيدو) إيجابًا و(برنابا) يرد ببطء وازنًا كلامه:

- «أنا لا أعرف بالضبط ما شاهدتموه في اتصالكم مع (السيد)... وإلى أي مدى ذهب بكم الاتصال بالضبط.. ولكن.. نعم أيها (الشاعر)، (السيد) لم يفارق خلوته ولو فعل لقضينا نحبنا في العاصفة في الحال».

قطع كلامه وهو ينظر للأفق ثانية وعلى وجهه تكونت علامات التعجب:

- «و لكن... ما هذا!!!».

حاول الثلاثة رؤية ما أثار قلقه ولكن أجسادهم وعقولهم المستنزفة حالت دون ذلك، كانت رؤيتهم لم تزل بعد مشوشة، أما (برنابا) فقد ظل على دهشته بضع دقائق - هو وباقي الجنود الذين شاركوه الدهشة - قبل أن يسمعوه يقول مندهشًا:

- «منذ متى يأتي الطوارق لزيارتنا؟!»

مع كلامه ظهرت لهم في الأفق نقاط زرقاء تحيط بنقطة سوداء- قدروا أنها (للسيد) - وإن لم يفهموا كنه تلك الزرقاء!!

التفت إليهم (برنابا):

- «يجب ألا يعلم الطوارق بوجودكم الآن؛ ربما قتلوكم قبل حتى أن يناقشونا في الأمر.. استقرار الصحراء بالنسبة لهم هو أولوية حياتهم.. هيا، سيقودكم الرجال إلى غرفة تنتظرون فيها حتى نعرف سبب مجيئهم.. أريد منكم أن تنتظروني حتى آتي إليكم أو أرسل إليكم.. فيما عدا هذا لا تخرجوا من الغرفة مهما كان السبب».

أرشدهم أحد الجنود برفق إلى غرفة سفلية..

الأسِرة المهيأة بداخلها - فيما يبدو للاختباء الطويل - كانت أقوى من مقاومتها، وفي دقائق تساقطوا واحدًا بعد الآخر في نوم عميق بلا أحلام، و لم يخرجهم منه إلا صوت أحد الجنود يحثهم على الاستيقاظ بعد ساعتين أو أقل قليلًا:

- «هيا، هيا... الجميع في انتظاركم!».

❀ ❀ ❀

دار بهم الجندي حول سطح القلعة إلى منطقة استراحة صغيرة بجوار باب كبير ثم أشار إلى المصاطب الحجرية وهو يقول لهم:

«انتظروا هنا وسيأتي (السيد) حالًا».

سأله (الحديدي) مسرعًا قبل أن يتركهم:

- «انتظر... ألم يقل (برنابا) أنه من الأفضل ألا يعلم الطوارق بوجودنا؟ !».

نظر الجندي إليهم قليلًا كأنما يزن بعقله المساحة المتاحة له للرد قبل أن يرد بهدوء حاسم:

- «يطلب (السيد) منكم الانتظار قليلًا هنا، لا أظن أبدًا أن أحدكم لا يثق في حكمة (السيد)».

ودلف من الباب قبل أن يعقب (الحديدي)..

بعد دقائق عاد الجندي وهو يشير إليهم بالدخول:

- «يمكنكم الآن الدخول، القائد (برنابا) سيشرح لكم كل شيء قبل الاجتماع».

قال (برنابا) - الذي التقوه- في بداية ممر خلف الباب الكبير:

- «كان إخفاؤكم محاولة يائسة على ما يبدو..

الطوارق على علم مسبق بوجودكم، هم فقط انتظروا نهاية العاصفة ثم توجهوا (للسيد) في خلوته للاجتماع به قبل أن يأتوا إلى نقطة التجمع».

حاول (الحديدي) من جديد أن يسأل ولكن (برنابا) وضع يده على كتفه وهو يبتسم:

- «اطمئن يا (حديدي)، كل ما قلته لكم يعرفه (السيد) جيدًا.. في الواقع (السيد) وضعكم تحت حمايته وأوضح هذا للطوارق جيدًا.. إن ميثاق (السيد) له احترامه عند الطوارق».

كان الممر خلف الباب يقود إلى الجزء الخلفي من سطح القلعة الضخم، لاحظوا على الفور أن الصحراء قد عادت لطبيعتها ولم يعد هناك أثر للعطايا..

كان هناك بدلًا منها قطيع من حيوانات شبيهة بالجمال ذات السنامين واقفة في سكون أسفل القلعة..

كانت ككل ما قابلوه في هذه الصحراء مختلفة الحجم عما اعتادته أعينهم في عالمهم..

حجمها صغير أقرب لحجم الخيل، لونها أبيض مشوب بالصفار..

و كالعطايا كانت رائعة الجمال..

شرح لهم (برنابا) وهو يتابع نظراتهم للقطيع:

- «هذا قطيع (العيس) الخاص بالطوارق، وعند الطوارق هي أغلى ما يملكون، سرعتها في الصحراء غير عادية وقوة تحملها يضرب بها المثل، والأعجب من هذا أن لكل فرد من الطوارق دابته التي لا تطيع غيره ولا يعرف اسمها غيره.. حاول (السيد) ترويض العيس قبل العطاءات ولكنه فشل تمامًا.. هي لا تطيع في هذه الصحراء إلا الطوارق ولا نعلم لماذا! على كل حال كان هذا حظًا حسنًا لنا إذ كان التعويض هو ترويض العطايا، وهو الموقف الذي تسبب في القطيعة بين (السيد) والطوارق!

ما لا تعلمونه أن العطايا يربيها الطوارق لديهم لا للترويض ولكن احترامًا لمكانتها في الصحراء..

هم يقولون إنها بنات الصحراء البيضاء ولذا فهي الكائن الوحيد الذي يقدر على السير في مثل العاصفة التي شاهدناها.. كان لأسامة دور عظيم في ترويض العطايا كما قال لكم (السيد) من قبل».

ساروا وراء (برنابا) في نطاق ضيق بالناحية الجنوبية لسطح القلعة في دائرة واسعة يحدها من الناحية اليمنى سـور يقل بشبر أو اثنين عن ارتفاع جسم (الحديدي) ومن الناحية الأخرى جدار قاعـة ضخمة خمنوا أن بابها هو مقصدهم..

بعد حوالي عشر دقائق من السير البطيء وصلـوا للناحية الجنوبية من القلعة حيث وجدوا فنارًا ضخمًا على قمته تمثال أضخم!!

ضحك (برنابـا) بشدة لعلامات الذهـول التي ارتسمـت على وجوههم وهو يقول:

– «قبل أن أخبركـم عن سر هذا التمثال وهذا الفنـار، هل خمن أحدكم أي شبه بين هذه القلعة وبين أخرى شهيرة جدًّا؟».

كان الحكم صعبًا دون النظر إلـى القلعة ككل وهو ما استحال عليهم من فوق سطحها، وحتى مع محاولاتهـم الرؤية من أكثر من زاوية لم يفلحوا إلا في تخيل بعض القـلاع القديمة التـي ربما قد سمعوا عنهـا دون تحديد واحدة بعينها..

بدا (برنابـا) مستمتعًا بحيرتهم ولـولا ضيق الوقت لأفسـح لهم المجال للتخمين أكثر.. قال (برنابا):

– «هـذا تمثـال بوسيـدون، وهـذه – أشـار إلـى الفنـار – هـي فنار الإسكندريـة القديمـة.. أنتم يـا سادة تقفـون علـى النسخة القديمـة لقلعة الإسكندرية – أو قايتباي كما علمت اسمها من (السيد)!».

❀ ❀ ❀

هل كان ما مر بهم من عجائب منذ مجيئهم هو ما جعل رد فعلهم متقبلا؟ أم لم تزل عقولهم مشوشة من أثر الاتصال المضني؟

رأى (برنابا) قبولهم فهمهم بصوت خافت راضيًا لانسجامهم وهو يفتح باب تلك القاعة التي داروا بمحاذاتهـا، كان (السيد) و(الطوارق) – بزي أزرق عرفوا منه سر النقاط الزرقاء في الأفق – في انتظارهم..

أشار السيد إليهم بالدخول وإلى (برنابا) بغلق الباب من خلفهم..

قفز أسامة – الذي لم يلحظـوه في البداية – من أسفـل المائدة الحجرية واقترب منهم بوداعة ضحك لها السيد:

– «يبـدو أن أسامـة وجد له أصدقـاء جـددًا.. تعالوا يـا أصدقائي هنا بجانبي».

وأشار ليساره.. لاحظ (الشاعر) على الفـور تلك النظرة التي رمقهم بها أحد الطوارق، الـذي يجلس على يمين (السيـد)؛ نحيف، طويل القامة أسمر اللون ويضع على المائدة أمامه سيفًـا أسود هائل الحجم لم ير أحدهم مثله من قبل..

التقط (السيد) نظرة (الشاعر) فأكمل معرفًا بجليسه:

– «(ابن ياسين) رأس الطوارق!».

انتبهـوا الآن أن (ابن ياسين) هو الجالس على رأس المائدة وأن السيد جالس على يساره وليس العكس..

كانت المائدة – الحجرية ككل شيء في الصحراء- بيضاوية الشكل يجلس (ابن ياسين) في منتصفها وليس على رأسها وعلى يساره يجلس السيد، وعلى يمينه وحتى نهاية المائدة بعض من رجال الطوارق -الأكثر أهمية على ما يبدو – وعلى يسار (السيد) ثلاثة أماكن تُرِكَت لهم ثم (برنابا) ويدور مع إطار القاعة مصطبة حجرية جلس عليها مجموعة من الطوارق الآخرين وجند (السيد)..

قال (السيد) موجهًا كلامه للرفاق الثلاثة:

– «أود أولا أن أشرح لكم خطورة ودقة الموقف..

اعلموا بداية أن هذا أول اجتماع لنا مع الطوارق منذ مجيئنا للصحراء!».

من جديد لاحظ (الشاعر) نظرة (ابن ياسين) المتمرسة في وجوههم مع استمرار (السيد) في كلامه

«و هم قد أصروا على الشرح في وجود الجميع».

قام (ابن ياسين) من مقعده وتحرك في أرجاء القاعة وهو يتكلم، كان ظاهرًا لهم تمامًا محاولاته السيطرة على انفعالاته:

– «لاحظنا منذ مدة تحرك الزواحف غير المفهوم بالنسبة لنا......».

انتبه الثلاثة للغة التي يستخدمها (ابن ياسين) في حديثه، فبجانب لهجته الواثقة الحازمة، كانت اللغة المستخدمة هي ذاتها التي شاهدوها على حوائط الهرم الذي أتوا من خلاله..

كيف عرفوا أنها ذات اللغة؟ لم يفهموا هذا، لكن اليقين الذي غمر عقولهم غير قابل للشك..

كيف فهموها بهذه السهولة؟؟ أيضًا لم يعرفوا، وإن تقبلوه..

مال (السيد) على (الشاعر) – الجالس بجواره- وهمس في أذنه:

– «انتبهتم للغة أليس كذلك؟ إنها السريانية.. سأخبركم عنها فيما بعد.. الآن برجاء الانتباه مع كل كلمة يقولها (ابن ياسين)».

أكمل (ابن ياسين):

«منذ بدء وجودنا هنا ولم يحاول أي جنس تعدي حدوده واختراق حيز أي جنس آخر إلا بعض المحاولات قليلة العدد.. هذا جعل مهمتنا في حماية الصحراء البيضاء محصورة في مراقبة الحدود الفاصلة فقط..

طبيعي إذن أن يثير هذا التحرك قلقنا، فلم نر الزواحف من قبل تتحرك بمثل هذا الوضوح وهذا العدد ناحيتنا..

و لقد راقبنا الزواحف في تحركها ناحية الصحراء بدقة شديدة، وعلى الرغم من حرص الزواحف وحذرهم الفطري فإن السمة التي ظهرت عليهم هي السرعة غير المدروسة على حساب تخفيهم وتمويههم – كان هذا سر ملاحظتنا لهم بسهولة كما فعلت أنت أيها (السيد)».

أومأ (السيد) برأسه موافقًا و(ابن ياسين) يكمل:

– «مع سرعتهم تلك صاروا في غضون أيام على وشك العبور إلى الصحراء البيضاء ولزم علينا التحرك مهما كان الثمن حفاظًا على توازن الصحراء..

إن الزواحف يعلمون جيدًا أن عبورهم يعني الدخول في مواجهة مباشرة معنا – نحن الطوارق على الأقل – إن لم يكن معكم أيضًا إن اخترتم القتال..

هم يعلمون حتمًا أن قتالًا مع كلينا وفي (وَسَطٍ) معاد لهم يعني احتمالات نجاة شبه معدومة..

لم يعن هذا إلا أن هدفهم من العبور إلى الصحراء أهم من كل هذا الخطر، لذا اجتمع مجلس عشائر الطوارق على الفور، ولم يكن للمجلس سوى اتخاذ قرار الهجوم على الزواحف..

التعليمات كانت واضحة لرجالنا؛ عدم السماح لهم بالمرور إلى قلب الصحراء – بالقرب من جبل مقيطام – مع الإبقاء على بعضهم للاستجواب».

سكت قليلًا (ابن ياسين) وقد عاد إلى مقعده ثم تنهد وهو يكمل:

– «حسنًا، كان هذا هو المخطط على الأقل.. لكن ما حدث كان على غير هذا التخطيط بالمرة، إذ إن الزواحف – ما إن عبرت حدودنا – غيرت وجهتها فجأة وعادت أدراجها من حيث أتت بسرعة مهولة – أسرع حتى من سرعة مجيئها!

ما الذي يجعلها تكشف غطاءها من أجل المجيء إلينا بهذا الشكل ثم تولي الأدبار بهذه العجلة غير العادية وتعود من حيث أتت؟؟

ليس هذا فقط بل لم يمر نصف يوم على انسحابهم المريب هذا حتى هبت تلك العاصفة غير المسبوقة في تاريخنا!

إن الصحراء لم تثر مثل هذه الثورة لمجرد عبور الزواحف، نحن نعلم الصحراء جيدًا ونعلم سلوكها.. لذا قررنا أن نحذو حذو الزواحف ولم يكن مسار هجومها غير واضح.. كانوا يتوجهون رأسًا لقلعتكم في مقيطام، ولما ذهبنا إليكم كانت دهشتنا أعظم لما وجدنا القلعة خالية إلا منك أيها (السيد) في خلوتك..

الآن – ثم التفت (للسيد) – أنت طلبت مني التمهل حتى الوصول لطابية بوسيدون قبل أن تجاوبني على سؤالي لك – ما الذي يجعل الزواحف تجازف كل هذه المجازفة للهجوم عليكم – ومن الواضح لي الآن – كانت نظراته مركزة على الثلاثة – أن لديك الكثير لتخبرني به.. إن الصحراء أشعرتنا بوجود رفاقك الثلاثة هؤلاء رغم محاولتكم إخفاءهم عنا!»

سكت (ابن ياسين) لحظة يتأمل فيها أثر كلماته على الجميع قبل أن يكمل بلهجة حاسمة:

– «أنا قلت ما عندي.. الآن لن أبرح مكاني حتى أفهم جيدًا كل ما حدث».

❀ ❀ ❀

لساعات ظل (ابن ياسين) منصتًا (للسيد) وللثلاثة.. كان يقاطعهم أحيانًا ليستفسر عن أمر غمض عليه أو تفاصيل لم يهتموا بشرحها –وتوقف كثيرًا عند الخريطة التي جاء بها (الحديدي) وطلب رؤيتها عن قرب هو وأحد الطوارق المقربين منه – حتى انتهوا جميعًا من السرد..

خيم الصمت لدقائق في القاعة تبادل فيها رجال الطوارق نظرات القلق ثم طلب (ابن ياسين) من (السيد) أن يتركه ورجاله في القاعة قليلًا للمشاورة فيما سمعوه..

خارج القاعة كان الهواء منعشًا وهو ما أفاد الرفاق الثلاثة كثيرًا إذ لم ترتح أجسادهم تمامًا من الاتصال رغم نومهم القصير..

وقفوا قليلا عند سور الطابية يتأملون الصحراء.. في أذهانهم العديد من الأسئلة، ولكن (السيد) قرر أن يبدأ هو بالكلام كعادته:

– «لعلكم انتبهتم أن فهمكم للغة السريانية قد تحسن، بل لعل هذا فاجأكم، نعم لم يظهر عليكم هذا – وهو تحسن كبير في تعاملكم أشهد لكم به –إنما الأهم أن هذا هو أول وأهم درس لكم؛ التقبل والانسجام..

هذا هو سر العيش في الصحراء..

نعم هذا ضد الطبيعة البشرية من السؤال عما يغمض عليها أو ما لا تتقبله، ولكن الحياة هنا مختلفة ومن ثمّ فطريقة التعامل معها تختلف تمامًا عن تلك التي جئنا منها».

سأله (الحديدي) بهدوء:

– «و لكن.. أيها السيد هذه ليست (السُّريانية).. أنا تعاملت مع تلك اللغة من قبل وهي تختلف تمامًا سواء من حيث شكل حروفها أو طريقة هجائها عن تلك التي سمعناها من (ابن ياسين) أو تلك التي شاهدناها على حوائط الهرم ونحن قادمون إليكم».

ابتسم (السيد) لأسلوب (الحديدي) الهادئ وهو يجيبه:

–«يا (حديدي) انتبه لما أقوله جيدًا.. إنها (السَّريانية) وليست (السُّريانية).. من سريان الروح وليست نسبة لتلك اللغة القديمة المعروفة.. الطوارق يسمونها (اللغة الآدمية) وهم محقون إلى حد كبير غير أنها ليست لغة سيدنا آدم، هي فقط وسيلة تعبير عن قدم اللغة حتى أن كل الأجناس اجتمعت على فهمها».

ترك لهم (السيد) بعض الوقت للاستيعاب ثم أكمل:

– «كل جنس هنا له لغته الخاصة بطبيعة الحال، وله كذلك طريقته الخاصة في الانسجام مع (الوسط) الذي يعيش فيه.. أنتم تعلمتم الاتصال ووصلتم إليّ في الخلوة، ولكني حقًا لا أعلم بمن (يتصل) باقي الأجناس.. نعم لدي تخمين ولكن ليس لدي علم قاطع..

على كل حال، ما اكتشفناه على مر السنين هو سهولة تواصلنا وتفكيرنا بتلك اللغة..

في الواقع استخدامها لم يكن اختيارًا، فمع استخدامها يزيد انسجامك في الصحراء أو ربما هو انسجامك الذي يجعلك تستخدمها.. لا أدري..

و ما علمناه أيضًا من المرات القليلة التي احتك فيها أحدنا – مثل (برنابا) إذ احتك بالزواحف منذ سنين طويلة – أن الكل يفهمها.. هذا ما يؤكد لنا أنها ليست لغة آدمية كما يسميها الطوارق.. هي لغة (كسبية) وليست (تعلمية) وهذا ما لاحظتموه أنتم..

ومع هذا اعلموا أن اللغة السريانية بها مـن الأسرار ما لم يصل لنهايته أحـد ولكل فـرد نصيبـه مـن تلـك الأسـرار بحسـب انسجامـه واتصاله الخاص».

في تلك اللحظة خرج أحد الطوارق من القاعـة يناديهم للاجتماع ثانية (بابن ياسين) قبل أن يجد الثلاثة أي فرصة للتعقيب..

قال (ابن ياسين) بعد أن جلسوا ثانية في أماكنهم السابقة:

-«نحن نفهم الآن سبب مجازفة الزواحف بهذا الشكل..

واضح جدًا أن عبورهـم للصحراء كان بسببكم أنتـم الثلاثة.. السؤال الحقيقـي هو كيف عرفـوا بمجيئكـم وماذا يريـدون منكـم؟ الخرائط التي قدمتموها لنا تقتـرح أن صديقكم جاء من عند الرماديـيـن.. يعني هذا حتمًا أن الشماليين على علم بمجيئه لعلاقاتهم الجيدة مع الرماديين، وربما كذلك عرفوا قيمته وقدراته..لكن - ثم توقف قليـلا وهو يهز رأسه - أن تسرع الزواحف خلفكم فهذا يعني أنهم توقعوا مجيئكم بشكل أو بآخر ويعني هذا - وتلـك هـي المشكلـة - أن الرماديـيـن قـد أبلغوهـم عـن صـديقكم وعن احتماليـة مجيء آخرين من بعده.. الرمـاديون لا يتعاونـون إطـلاقًا مع الزواحف، هم فـي الـواقع أعداء تاريخيون لا يمكـن بـأي حـال من الأحـوال أن يتبادلـوا مثل تلك المعلومـات إلا لسبب أقوى - ليس مجرد أهمية صديقكم - ولكن أبعد من ذلك.. أن الرماديين يلعبون لعبة خطيرة جدًا؛ يضربون الشماليين بالزواحـف.. نخمن أن مجيء الزواحف خلفكم يعني أن صديقكم صار صعـب الإمساك به وأنهم بحاجـة لوسيلة استحواذ وسيطرة على قدراتـه.. هم لا يعرفون أنكـم أصدقاؤه ولكـن خمنوا هذا لتـلازم مجيئكم بعده.. نحـن كذلك نخمـن أن مجازفة أخـرى قد سبقت

مجازفة الزواحـف تلك ولكن في ممرات الرماديـيـن أو الشماليين.. لعل صديقكم قد نجح في إيقافها - إن كان قـد عرف حقيقة قدراته - وهذا الذي عجل بهم إلى هنا..

كما تـرون كل ما نملكه هـو التخمين ولكـن كل التخمينـات أخطر من بعضها.. نأتي هنا للسؤال الأهم؛ لماذا عـادوا إن كانوا لم ينجحوا بعد في مهمتهم؟

و للأسف لم نخمن إلا ما هو أخطر من كل ما سبق..

إن عودتهم قبل تمام مهمتهم ليست إلا لوجود هدف أهم قد ظهر لهم في أرضهم.. هل يمكن لأيكم أن يخمن ما هو هذا الهدف؟».

أجابوا كلهم على الفور وبدون تردد:

- «سكر؟».

أومأ (ابن ياسين) برأسه موافقًا:

- «نعم للأسف.. كيـف عبر لأرضهـم؟ ولماذا عبـر؟ لا علم لدينا، ولكن ما نعلمه جيـدًا أن وصولهم إليـه كارثة لا يحد مـن شناعتها إلا عدم معرفتهم بالخريطة التي لديكم ولله الحمد..

إن هذه الخريطة أخطر مـا نملكه الآن.. هـي أولا تعرفنا بدقة عجيبة مسـارات الطـرق عنـد كل جنـس وثانيًـا تعرفنـا علـى نقـاط العبور الرئيسية.. نحن - بناء على هذا - قررنا الذهاب خلف الزواحف حتى إلى أرضهم ذاتهـا مهما كانت المخاطـر.. إن عامل الوقت ليـس في صالحنا ومعرفتهم بأرضهم تساعدهم على العثور علـى صديقكم أكثر منا، ولكنهم حتمًا لا يتوقعون هجومًا مثل هذا.. أيها (السيد) أنتم معنا، أليس كذلك؟».

طريقة طرحه للسؤال كانت أقرب للتقرير أو للأمر المباشر لم يمنعه سوى الاحترام المتبادل بين الندين..

صمت السيد قليلًا ثم سأل وهو يشير إلى الرفاق:

- «وماذا عنهم؟».

دوى صوت الثلاثة قاطعًا الفرصة على (ابن ياسين) وكاسرًا تقاليد الحوار الدائر بين هذين العظيمين:

- «نحن قادمون».

تأمل (ابن ياسين) حالهم ثم قال بأسف:

«نعم.. للأسف.. سنضطر لتحملكم معنا.. لا يمكن تركم بلا حماية هنا ونحن لا نملك رفاهية ترك رجال خلفنا.. أنتم قادمون معنا لحرب تلك الزواحف وأرجو أن يكون (السيد) قد أحسن تدريبكم».

ظهر للثلاثة بوضوح أن (تقبل الواقع) كان هو العنصر الحاسم في قبول (ابن ياسين) مع غرابة قراره وإلا فأي أهمية أو منطق لمشاركتهم مثل تلك الحملة؟

قال (السيد):

- «عظيم.. الآن نحتاج إلى اجتماع لوضع خ........».

قاطعه (ابن ياسين) على غير العادة وهو يقول ببطء ووضوح:

- «أيها (السيد) معذرة ولكن يبدو أن كلامي لم يكن واضحًا بما فيه الكفاية.. أنا قلت إننا لن نسمح بوقوع صديقكم هذا في أيدي الزواحف مهما كان الثمن.. أريدكم أن تفهموا أننا ننقذه على أمل أن نعيده - معكم - من حيث أتيتم.. هذا هو الحل الأول وليس الأوحد».

كان المعنى واضحًا..

وكان التقبل منهم صعبًا..

كذا الإرهاق كان شديدًا..

والثورة كانت عارمة من وقع كلام (ابن ياسين) الجاف..

فكان طبيعيًا إذن أن يفقد الثلاثة وعيهم على الفور!!

❀❀❀

أفاقوا من غيبوبتهم على صوت (السيد):

- «هيا يا أصدقائي.. سنتحرك الآن.. سأشرح لكم كل شيء في الطريق.. لا وقت أمامنا على الإطلاق إلا للتحرك ومحاولة اللحاق بصديقكم.. هذه كانت خطتنا على كل حال.. الآن أضيف لها دافعًا آخر وهو الدفاع عنه إذا لزم الأمر».

كانت العظايا في انتظارهم أمام طابية بوسيدون والطوارق بملابسهم الزرقاء على العيس ينتظرون ظهورهم ليبدءوا التحرك ناحية أرض الزواحف..

❀❀❀

الفصل الأخـير

وقف (سكر) على باب الكهف يتأمل الصحراء الصخرية الممتدة أمامه بلا نهاية..

الكابتن يقف خلفه محاولاً بشتى الطـرق إقناعه بالرجوع من حيث أتوا ومحاولة فتح البوابة إلى الممرات من جديد..

لكن كان الطريق مسـدودًا أمامه لهـذا الغرض فسـأل (سكر) محاولاً السيطرة على الإحباط والخوف بداخله: - «هـل يمكنني أن أسأل إن كان لديك (إحساس) ما بطريقنا».

رغمًا عنه أظهرت لهجته ما في باطنه، لكن (سكر) لم يلتفت إليه..

ربما أصلاً لم يسمعه..

لعينيه ظهر الأفق شاحبًا، وأمامه ببضعـة أمتار شبح متمثل - له فقط- لرجل يبتسم وهو يمد يده إليه، ومن خلفه سلسلة من الرجال تخترق الأفق إلى ما لا تراه عينه..

التفت إلى الكابتن مبتسمًا:

- «نعم يا كابتن.. إن معي من يرشدني».

(نهاية الجزء الثاني)

❀ ❀ ❀

الكـاتـب في سـطـور

محمـد فـاروق المليـجي

- استشاري تخطيط استراتيجي وموارد بشرية، من مواليد القاهرة عام 1978. تخرج في كلية التجارة الخارجية عام 1999.
- يكتب الرواية والقصة القصيرة، وصدرت له المجموعة القصصية «العطشجي» في يناير 2012 حيث بدأ فيها بذر نبتة عالمه الملحمي الذي يطمح إلى تكوينه عبر كتاباته..



« سطح الأرض تحت النجم ..

فوق النجــوم تحت الأرض ..

لن يقابــل إنســيٌّ خلـــقًا ..

إلا علــى أرض ســـــواء ..

يكون الاثنان فيها واحد .... »

نص سريـاني غامض كتبه مجهول ، وتـم حفظه على مدار السنين و الأجيال .. لم يعرف سكر و هو يسافر للاسكندرية للقاء أصدقائه أن تلك الكلمات الغابرة ستغير حياتهم جميعا وتأخذهـم في رحلة عبر الزمـان و المكان و حدود العقل من الملاحات إلى الصحراء البيضاء ... فأي حال وأي مصير ؟!

النـاشــر





6 221133 349956

